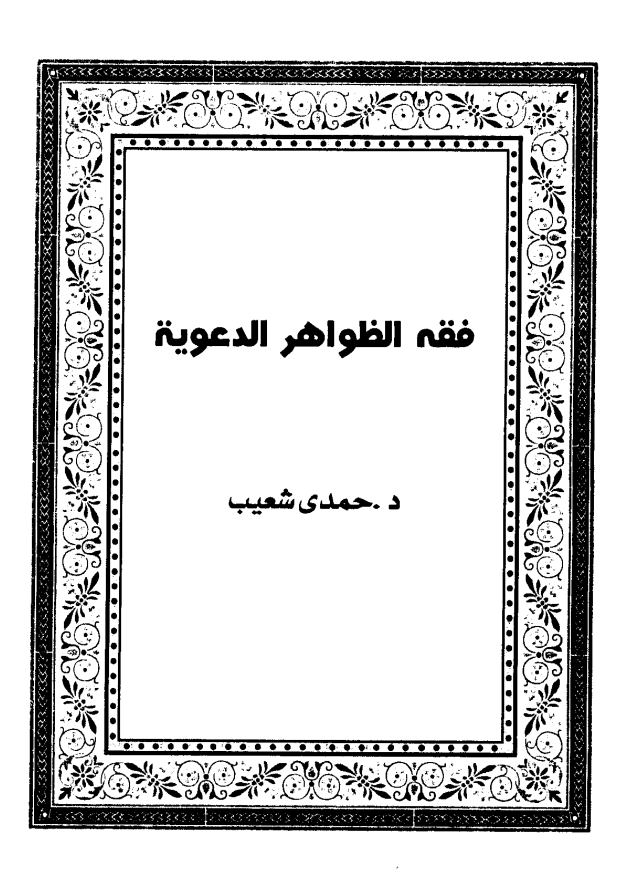

فقه الظواهر الدعوية
د .حمدى شعيب

بسم الله الرحمن الرحيم

فقه الظواهر الدعوية

* الكتـــــاب : **فقه الظواهر الدعوية .**

* الـكـــاتـــب : **د . حمدى شعيب .**

* الطبـــعـــة : الأولـى 2002 .

* الـنـاشـــــــر : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**

* التـــــوزيـع : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**

تليفاكس : **3305538 ـ 3321744 / 040**

☎ **3316316 / 040**

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية ـ المحلة الكبرى

تليفاكس : **2120277 / 040**

* الإيداع القانونى : **14068 / 2001**

* الترقيم الدولى : **I. S. B. N 977 - 278 - 191 -3**

Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail / Dar_elbasheer@hotmail.com.
Dar_elbasheer@maktob.com.

فقه الظواهر الدعوية .. فى ضوء السنن الإلهية

عندما خلق الله عز وجل هذا الوجود الكبير ، ثم خلق الإنسان للخلافة ولإعمار هذه البسيطة ، كانت تلك رسالة للإنسان أنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، ولابد له أن يتناسق ويتوافق مع هذا الوجود الكبير ، ولابد له أيضاً أن لا يفسر قضاياه بمنأى عن هذه المنظومة الواحدة .

• ناموس واحد :

وإذا كان الخالق عز وجل قد جعل لهذا الوجود سُنناً ثابتة تنظم حركته ، وتضبط نظامه ، فإن هذه السنن الإلهية من شأنها أن تنطبق على الحياة البشرية كما تنطبق على حركة الكون والأحياء جميعاً سواءً بسواء . فهو ناموس واحد من خالق واحد للخلق جميعاً . أو هى وحدة التنظيم اللازمة لوحدة الخلق .

• وحدة البناء الكونى :

وإذا تأملنا صفحة الوجود الكبير ، وفى ساحته الكونية ، لوجدنا أنه يتكون من مجموعات ، أو لبنات ، لا حصر لها ، وكل لبنة أو مجموعة تتكون من نواة وهى نجم ضخم ويدور حوله نجوم كثيرة أضعف منه . وهذه الوحدة أو المجموعة أو

اللبنة الواحدة تسمى (العنقود النجمى) [1] وتلك الوحدة أو اللبنة الكونية الواحدة يجمع مكوناتها علاقة قوية من التجاذب والارتباط ، بحيث إذا غابت تلك القوة التجاذبية بين النواة وهى النجم الضخم ، وبين أعضاء وحدتها وهم النجوم الأخرى لانفرط عقد الوحدة وتناثرت فى ساحة الكون الكبير أشلاء .
وتأمل أيضاً تلك العلاقة القوية بين أعضاء المجموعات الشمسية الأصغر والتى يتكون كل منها من نواة وهى النجم وحولها أعضاء مجموعتها وهم الكواكب ، ثم تدبر أيضاً تلك العلاقة الارتباطية داخل أدق وحدة كونية وهى الذرة الواحدة ودورها فى ربط وضبط الحركة بين مكوناتها وهى النواة والإلكترونات حولها .

• وحدة البناء الاجتماعى :

وفى مجال الأحياء والمجتمعات البشرية نجد أن الوحدة المكونة لتلك المجتمعات وهى (الأسرة) تتكون أيضاً من نواة وهى الأب ويدور حوله ومعه مكونات تلك الوحدة الاجتماعية وهم أعضاء الأسرة . ويكون بينهما قوة تجاذب وارتباط يتناسب معها طردياً قوة وحيوية الأسرة .

ولكل من القسمين دور فى تعضيد وتقوية بل ووجود تلك

---

(1) صناعة الحياة : محمد أحمد الراشد 2 .

القوة الارتباطية الأسرية . فإذا ضعف دور النواة وهى الأب كان هذا استعقاقاً ، وإذا قصر بقية الأعضاء فى دورهم كان ذلك عقوقاً ، وبروز أى خلل كما يتمثل فى ظاهرتى الاستعقاق والعقوق داخل الأسرة من شأنه أن يُودى بها وبالتالى بالمجتمع ككل . لذا كان من واجب المصلحين أن يبادروا بعلاجه حتى لا يستفحل وتغرق السفينة بالجميع .

- **وحدة البناء الدعوى التربوى :**

وكذلك الأمر بالنسبة إلى أمر الدعوة وتحقيق منهجه سبحانه فى الأرض ، فى أى زمان ومكان ، فإن ركائز أى دعوة هى ثلاث : (**المنهج والقيادة والجنود**) . **والقيادة** هى النواة التى يتحرك معها وحولها وبها جنود وأفراد الجماعة . **والمنهج** هو الذى يضبط العلاقة بين القيادة أو النواة وبقية أفراد الجماعة . **والجماعة** بدورها تتكون من وحدات بنائية صغيرة ، كل وحدة يديرها مسؤول ، يتبع تلك القيادة . وذلك كما فعل الحبيب ﷺ فى بيعة العقبة الثانية عندما طلب من الأنصار تعيين وانتخاب اثنى عشر زعيماً يكونوا نقباء ينيبوا عنهم .

وقوة العلاقة بين المسؤول والأفراد داخل كل وحدة صغيرة ، تتناسب معها طردياً قوة تلك الوحدة وبالتالى قوة الجماعة .

● **السنن الكونية .. والفقه القياسى :**

أما وحدة التنظيم ، اللازمة لوحدة الخلق ، فنعنى بها تلك السنن الكونية ، وهى القوانين العامة ، التى لا تحابى ولا تجامل ، ولا تتبدل ولا تتغير ، التى جعلها الحق سبحانه قواعد ثابتة لتنظيم وضبط علاقات وأمور هذا الوجود الكبير ، وبالتالى العلاقات داخل أى وحدة بنائية سواء للكون أو للمجتمعات ، أو للدعوات والجماعات .

لذا فإنه من الضرورة بمكان أن نفقه الظواهر الدعوية والتربوية فى ضوء فقه تلك السنن الإلهية . فلقد حثَّنا الحق سبحانه أن نستخدم عقولنا ، وذلك من خلال باب عظيم فى الفقه ، وهو (**الفقه القياسى**) ، وذلك بأن نفقه بعض الظواهر المجهولة ، بالقياس إلى قواعد لظواهر معلومة . وذلك كما أرشدنا سبحانه بأن نؤمن بقضية غيبية ، وهى وجود الحافظ أو الرقيب على كل نفس ، بالقياس إلى قضية محسوسة ومعلومة وهى وجود النجم أمام كل رائى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1] .

---

(1) الطارق : 1ـ4 .

(1) ظاهـرة الاستعقاق

وهى ظاهرة يتجلى فيها ضعف أو غياب القوة الارتباطية داخل أى وحدة بنائية ـ سواء فى مجال الكون أو المجتمع أو فى المجال الدعوى والتربوى – وذلك بأن تبرز روح التمرد فى نفس التابع ، مدفوعاً من خلال تقصير المتبوع .

والمجال الذى يعنينا هنا ، هو المجال التربوى الدعوى ، حيث يمكن لنا بحث وتفسير تلك الظاهرة التربوية الاعتلالية ، من خلال باب الفقه القياسى .

• فاعلية .. تثمر براً :

وفى بداية دراستنا لهـذه الظاهرة السلوكية ، يجدر بنا أولاً ـ وببساطة ـ أن نبحث فى منهجه سبحانه عن قواعد معلومة لظواهر معلومة مشابهة ونعى كيف عالجها الحق جلَّ وعلا ، وبالتالى يمكن لنا بها تفسير تلك الظاهرة فى أى مجال آخر .

ولو تأملنا فى مجال الوحدة البنائية للمجتمع ، وهى الأسرة لوجدنا كنوزاً قرآنية ، وأنواراً من وصايا الحبيب ﷺ تفسر (ظاهرة الاستعقاق) هذه ، وتقرر أن الخطوة الأولى لحماية المجتمع هى ضرورة المحافظة على العلاقات الارتباطية

داخل الأسرة ، وهى القوة التى ينبنى عليها قوة ووحدة الأسرة ومن ثم قوة المجتمع ككل ، لأن المجتمع البشرى منوط به إعمار الأرض والاستخلاف . وهى فى حقيقتها مراعاة لأمر السنن الإلهية التى تضبط وتنظم حركة الخلق عموماً .

ويكفينا مثال واحد من القرآن الكريم يركز على أهمية الرؤية المستقبلية لمصير من يفرط فى دوره وأمانته تجاه من يعول ويرتبط **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾** (1) .

وكذلك لو تدبرنا وصاياه ﷺ وذلك فيما رواه النعمان بن بشير - رضي الله عنه - حيث قال : « أعطانى أبى عطية ولم ترضَ أمى حتى يُشهد عليها رسول الله ﷺ فانطلق أبى إلى رسول الله ﷺ وقال له : إنى نحلتُ ابنى هذا غلاماً - أى أعطيته عبداً - فقال له رسول الله ﷺ : **ألك ولد سواه ؟** قال : نعم ، قال رسول الله ﷺ : **أكلهم وهبت له مثل هذا ؟** قال : لا ، قال رسول الله ﷺ : **لا تشهدنى إذن فإنى لا أشهد على جور . يا بشير أتحب أن يكونوا لك فى البر سواء ؟** قال : نعم ، قال : **فاذهب فأرجعه ، إن**

---

(1) التحريم : 6 .

لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما أن لك من الحق عليهم أن يبرُّوك . ثم قال : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم(1) .

وتدبر هنا بعض الملامح التربوية وفاعلية كل فرد ، تقييماً وتقويماً لدور الوالد للمحافظة على كيان الأسرة ولمعالجة ظاهرة الاستعقاق :

(1) **دور الفرد** : كما تلمحه فى أمانة النعمان بن بشير - رضي الله عنه - فى نقل القضية كاملة ، وبحياد فريد ، إحساساً بأن أى خلل سينعكس آثاره ونتائجه على الأسرة والمجتمع ككل ولا يعنيه أى حساسية من هذا الموقف . لأن التجربة تعتبر ملكاً للأجيال .

(2) **دور الأم** : وهو الدور الرقابى للصف الثانى خلف الأب :

(أ) حيث أعلنت عدم رضائها بهذا السلوك ، وهو موقف يمنع أى انحراف تربوى ولو كان غير مقصود ، فقد لا يظهر خطره إلا فى المستقبل ونستشعر فى هذا الموقف أهمية الشجاعة والإيجابية فى إبداء الرأى ، ونستشعر أيضاً جو الحرية داخل الأسرة وكيف ينعكس أثره على مصالح الأسرة والمجتمع .

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(ب) ثم فى نصيحتها للأب بالعودة إلى استشارة القائد والمربى ﷺ فى أمر حياتى شخصى يتبين مدى عمق فقهها ووعيها للمرجعية التى يجب أن يعود إليها الجميع فى كل الأمور .

(3) **دور الأب** : كما يتضح فى قبوله لنصيحة الأم ، يتبين مدى وأهمية تواضع المسؤول ، وأهمية أن يكون رَجَّاعاً ، فيدور مع الحق حيث دار . وتدبر مغزى كلمة (**فانطلق**) ، وما توحى به من سرعة الاستجابة وسرعة التحرك .

(4) **دور القيادة الواعية** : والممثلة فى شخصه ﷺ :

(أ) أن يجد الأب وقتاً عند الحبيب ﷺ ليستشيره فى أمور حياتية عادية . توضح أن القائد يجب أن يكون بيته مفتوحاً لأى فرد ، وأن يكون صدره رحباً ليَسَع الجميع بأحوالهم ، ومشاكلهم . ولا يهمل أى خطأ ، ولو كان بسيطاً ، فالمسؤوليات الكبيرة لا تمنع من الاهتمام بأمور الأفراد الحياتية الخاصة .

(ب) فى استفساره ﷺ : « **ألك ولد سواه ؟** » ثم فى سؤاله : « **أكلهم وهبت له مثل هذا ؟** » يتبين حكمة القيادة فى تقصّى أسباب الخلل ، وإحاطة الأمور من كل جوانبها قبل الحكم فى أى قضية .

(جـ) فى رفضه ﷺ أن يقبل مثل هذا الظلم أو الشهادة

عليه ، تبرز صفتى العدل والتقوى ، كميزان يحفظ الحقوق .

(د) فى توضيحه ﷺ لعاقبة هذا الإجحاف فى التسوية يتبين بعد نظر القائد ، وعمق رؤيته المستقبلية .

(هـ) فى أمره ﷺ : **(فاذهب فأرجعه)** يتبيَّن حزم القائد فى المعالجة السريعة لأى خلل .

(و) فى توضيحه - ﷺ - لشرط عدل الأب فى التسوية بين الأبناء مقابل برّهم له ، يتبين مدى التوازن فى الحكم بين أداء الواجب قبل المطالبة بالحقوق .

(ز) فى تلخيصه ﷺ وتقعيده للقضية فى كلمات جامعة : **(اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)** أهمية دور القيادة فى وضع أسس ومبادئ أو معايير ثابته من شأنها أن تحافظ على معالجة أى خلل مستقبلى أو ظواهر مشابهة .

• فن إنتاج البر :

ولو تدبرنا نصيحته ﷺ الجامعة ، فى موضع آخر : **(أعينوا أولادكم على البر بالإحسان إليهم وعدم التضييق عليهم والتسوية بينهم فى العطيَّة ، من شاء استخرج العقوق من ولده)**[1] لتبين لنا مدى اهتمامه ﷺ بتلك القضية ، والتركيز على أهمية استمرارية المربى فى معالجة الظواهر المرضية ، من كل جوانبها ، والمتابعة

---

(1) رواه الطبرانى فى الأوسط .

الدائمة ضد عوامل الخلل والانحراف .

ونستشعر مع هذه النصيحة بعض العوامل الجالبة للبر ، وهى :

أولاً : الإحسان إلى الأبناء وما يلقيه فى النفس من استشعار لجو الرفق والرحمة والود ، المطلوب داخل الأسرة .

ثانياً : عدم التضييق على الأبناء . وأثر هذا العامل فى النفس ، من ضرورة إشاعة جو الحرية والمرونة فى العلاقات .

ثالثاً : التسوية فى العطيَّة . وما يوضحه من أهمية إشاعة معانى العدل والتوازن ، والحيادية ، بل الإنصاف فى كل شىء خاصة العواطف قبل العطايا .

ثم تدبر مغزى : (**أعينوا أولادكم على البر**) أى أنه واجب ثقيل على الأبناء ويحتاج إلى مبادرة إيجابية وإعانة من الوالدين وتأمل أيضاً خطورة الخيار الأخير ، والذى يأتى كصيحة إنذار وتحذير يلقى بالمسؤولية أولاً على الوالد ، فهو بيده الاختيار والمبادرة ، وتدبر ظل كلمة : « **استخرج** » وكأنها عملية شاقة يشارك فيها الوالد ولده ، فى نزع ذلك الداء العضال .

• فن استخراج العقوق الدعوى :

وفى الحركة الدعوية ، وحتى تتواصل العملية التربوية ،

دون ظواهر تربوية اعتلالية ، كان الأمر سواءً بسواء . لذا فإن عملية استخراج العقوق التربوى والدعوى من نفوس الأتباع ، عملية مركبة وتحتاج إلى فاعلية الجميع . مع تكامل الأدوار وتفاضلها .

فإذا كان للأفراد دور فى التقويم ، بأن يتصفوا بالأمانة ، والحيادية ، والنزاهة ، فلا يستغل الفرص أحد للجور على حقوق الغير .

وإذا كان للصف الثانى أو أعوان المربى دور أيضاً ، من حيث المحافظة على الحيادية ، والشجاعة فى إبداء الرأى ، والوعى التام للمرجعية التى يجب أن تعود إليها كل الأمور ، فتراجع وتحاسب الكبير قبل الصغير .

وإذا كان للقيادة الدور الخطير فى علاج مثل تلك الظاهرة فهى المرجعية التى تتقصى الأسباب ، وتعالجها ، وترد الأمور إلى نصابها . وعليها عبء المتابعة الدائمة .

فإن المربى هو حجر الزاوية ، وعليه الدور الفعال والإيجابى فى عملية استخراج العقوق الدعوى من نفوس أتباعه ، وأى تقصير من جانبه تكون عاقبته هى (ظاهرة الاستعقاق) ، العميقة التأثير فى النفوس ، والخطيرة العلاج .

وعليه أن يحسن فنون التربية ، مع أتباعه ، وأحبابه ،

وأولها (فن إنتاج البر) ، وذلك بأن يجتهد فى :

(1) أن يحسن إليهم ويرفق بهم ، وينشر روح الودّ ، ويتجنب أسلوب التقريع الذى قد يعظم فيبلغ درجة تسقط الزلات .

(2) وأن لا يضيق عليهم ، خاصة فى تعامله مع الآراء والأفكار والمواهب ، وأن يشعرهم بأجواء الحرية والمرونة فى التعامُل .

(3) ثم وهو الأهم ، بأن يعدل فى العطيَّة بين الأفراد ، خاصة العواطف ، وفى التكاليف ، وقبول الآراء ، فلا يركن إلى رأى بعينه ويمنح صاحبه من الوقت وسعة الصدر والمحاباة والقبول ما لا يعطيه لغيره ، حتى فى الزيارات وإذا اعتبرنا أن هذا هو مكمن الخطر ، وأساس زرع ذلك الداء العضال فى النفوس ، فإن الأخطر منه قد يأتى عندما يستشعر الآخرين هذا الميل ، وساعتها لن يسمع أقل من رأى أفضل أخوة وهم أخوة يوسف - عليه السلام - فى أكرم نبى وخير والد ، عندما آلمهم ميل والدهم إلى يوسف - عليهما السلام - فأعلنوها صريحة : ﴿**إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[1] .

---

(1) يوسف : (8).

ثم على المربى أيضـاً أن يكمل هـذا الفن التـربوى بفن آخـر يرتبط به ويتـلازم معـه ، بل وينتج عنه ألا وهو (فن استـخـراج العقوق) والخطر الأكبر أو المسؤولية العظمى أن للمربى الخيار فى أن يجيد هذه الفنون التربوية ، فهى فى الأصل مسؤولية تبدو فى ظاهرها أنها اختيار (**فمن شاء استخرج العقوق من أتباعه**) .



(2) ظاهرة الازدواجية

لا ينبغى للمسلم أن يعيش حبيس ذاته ، وسجين دائرته الشخصية ، فيفسر قضاياه ، وأحداثه اليومية بمنظاره الشخصى المحدود ، والوجود الكبير من حوله ، يدعوه دوماً أن يربط نفسه به ، عن طواعية ، مختاراً وإرادياً ، وإلا فهو ـ حقيقة وواقعاً ـ ، مرتبط به ، لا إرادياً ويستحثه ليتدبر سنن الله الكونية ، والظواهر العامة التى تنظم وتنسق وتضبط هذا الارتباط . فيتوافق ولا يصطدم ، ويكون جهده مثمراً .

• بركة التعايش الاختيارى :

فهو عندما يقبل مختاراً ، وعن طواعية ، أن يتعايش ويتناسق ويتوافق مع سنن الله فى خلقه ، المنظمة لهذا الوجود ، ويعرف أنه ما خلق إلا لوظيفة العبودية لله سبحانه : **﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**[1] وأنه كذلك ما خلق إلا لمهمة الاستخلاف والإعمار فى الأرض : **﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾** [2] .

فإن استقرار معنى العبودية فى نفسه ، يعطيه يقيناً بأن هذا الوجود الكبير ليس فيه إلا عابد ومعبود . وأن هناك عبداً يَعْبد ورباً يُعْبد .

---

(1) الذاريات : (56) .

(2) البقرة : (30) .

• وأن هناك حقيقتين كبيرتين :

الأولى : حقيقة الألوهية بخصائصها وآثارها وصفاتها ، وهى حقيقة ذلك المعبود سبحانه ، المستحق للعبادة ومصدر كل شىء .

الثانية : حقيقة العبودية ، بخصائصها وآثارها وصفاتها . وهى حقيقة ذلك العابد ، التى تتمثل فى ثلاث هى : حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان[1] فإذا فقه السنن ، وأدرك تلك الحقائق ، وتعامل معها ، كانت تلك بدايته الطيبة ، وانطلاقه المبارك وجهده المثمر .

• ازدواجية النظرة... هى شرط النضج:

ولكى يدرك المسلم تلك الحقائق ، فإنه مطالب بأن يرقى بنفسه أولاً ـ ثم بالإنسانية ثانياً ـ فى تصوراته ، وفى وسائله ، ثم فى غاياته ، فينمو وينضج بفكره وسلوكه إلى مرحلة الرجولة البصيرة الراشدة القوية المدركة ، التى تدرك أن (الانحسار الحضارى ، أو الأزمة الحضارية ، التى نعانى منها اليوم هى أزمة فكر أولاً وقبل كل شىء ، لأن النسخ الفكرى للحضارة

(1) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته : سيد قطب 96 بتصرف .

الإسلامية، توقف عند حدود العقول السابقة، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن الإنتاج . والكشف عن السنن التى تحكم الحركة الاجتماعية لا يتأتى إلا من السير فى الأرض، واستقراء التاريخ، والتعرف على القوانين التى حكمت البشر، للإفادة منها للحاضر والمستقبل) [1] .

وبذلك يتجاوز المسلم مرحلة العجز والقصور، مرحلة (الطفولة التى تقتضيك أن ترثى لصاحبها، وتعطف عليه) ، الطفولة التى لا تفهم إلا ما يدور فى محيطها الصغير، وتنفض يدها معرضة عما يدور بين الرجال ذوى المواهب الكبار، فهل من سبيل إلى إزالة هذا الحجاب الكثيف، فينكشف قناع قلب الإنسان ! فيرى الله من خلال كل شىء، كأن له نافذة، يطل منها على الملأ الأعلى ؟! . نعم : السبيل مُيَسَّرة ممهدة، نعم لا ينقصنا إلا أن ننظر لكل شىء أمامنا نظرتين، فى نظرة طويلة واحدة :

• **أما النظرة الأولى** : فهى نظرة العين الباصرة، وهى التى لا ترى من الشىء إلا صفحته الخارجية الصماء .

• **وأما النظرة الثانية** : فهى نظرة العين الباطنة، وهى التى

---

(1) أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق : د. أحمد محمد كنعان ـ من تقديم : عمر عبيد حسنة 9ـ15 بتصرف .

لاترى مـن الشـيء علـى أنه فعل فاعل ، فتظـل تبحث عـن القـائم عليـه ، المدبر لشـأنه حتى تُفضـي إلى اللـه سبـحانه وتعالى) [1].

ومن ثم فإن المسلم وحده ــ ونتيجة لتلك النظرة العميقة التدبر ، الازدواجية التبصر – هو الذى يملك رؤية شاملة لهذا الوجود الكبير ، ويعلم أنه لا يعيش وحده. وأن هناك ظواهر سلوكية عامة ، تربطه بهذا الكون ، تدل على وحدة الخلق ، وتبرهن على وحدانية المصدر ، وتعطيه شعوراً داخلياً دفّاقاً بالأنس والألفة والودّ لجميع الموجودات. وتساعده فى حركته ومهمته للنهوض الحضارى بأمته.

ومن هذه الظواهر الكونية والسنن الإلهية ، التى أبدعها الخالق ، المعبود سبحانه ، ليُسيِّر ولينسِّق حركة الخلائق والموجودات جميعها ، هى **(ظاهرة الازدواجية)** ، والتى تتطلب نظرة عميقة التبصر ، ازدواجية التدبر لاستكشاف ظاهر وباطن الأشخاص والأشياء والأحداث والتى يمكن للمسلم الواعى أن يجدها فى نفسه وفى كل شىء يشمله الوجود الكبير من حوله .

---

(1) تذكرة الدعاة: البهى الخولى 186-181 بتصرف .

• الازدواجية .. فى صفحة الكون:

وهذه الظاهرة يستطيع أن يراها المسلم ، ويستشعرها فى كل شـىء ، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (1) . وكلمة (شىء) هنا تشمل غير الأحياء أيضاً . ففى صفحة الوجود الكبير يرى ظاهرة الازدواجية فى خلق السماوات والأرض ، وفى تقابل وتزاوج وتوازن ظاهرتى الليل والنهار : ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(2) . وفى أصغر وحدة فى بناء الكون وهى الذرة ، يجد أنها مؤلفة من ازدواجية كهربية ، هما الموجب والسالب .

• الازدواجية .. قاعدة الخلق :

ويلاحظ تلك الظاهرة أيضـاً فى وحـدة الخلق ، وحـدة القـاعدة والتكوين لجـميع الخلائق والأحياء جميعها ، سواء الفصائل الحيوانية أوالنباتية : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾(3) . ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾(4) . ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾(5) .

(1) الذاريات : (49) . (2) الرعد : (3) .
(3) يس : (36) . (4) الرعد : (3) .
(5) طه (53) .

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾[1] أى من ذكر وأنثى .

• الازدواجية .. قاعدة السلوك البشرى والمصير:

ولقد شاء سبحانه أن تكون هذه الظاهرة الكونية ، والسنة الإلهية ، واضحة كل الوضوح فى نهج البشر وسلوكهم فى الحياة . فيرتبط السلوك البشرى ويتناسق ويتوافق مع طبيعة الأحياء بل ومع طبيعة الكون أيضاً : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[2] .

(إنها حقيقة إجمالية تضم شتات البشر جميعاً ، تضمها فى حزمتين اثنتين ، وفى صفين متقابلين ، تحت رايتين عامتين . وهما الصفان اللذان يلتقى فيهما شتات النفوس ، وشتات السعى ، وشتات المناهج ، وشتات الغايات ، وهما نهجان للجموع البشرية فى كل زمان ومكان ، وهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان ، فكل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! إما إلى اليسرى أو العسرى)[3] .

وكذلك تبدو تلك الظاهرة فى مصير كلا الفريقين ، فإما إلى الجنة أو إلى النار والعياذ بالله ، وكان من حكمته وكرمه وعدله ورحمته سبحانه ، أن لايتساوى الفريقان فى المصير : ﴿لا

---

(1) النبأ : (8) . (2) الليل : (5 ـ 10) .

(3) فى ظلال القرآن : سيد قطب 3922/30 ـ 3923 بتصرف .

يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ (1) .

• الازدواجية .. قاعدة النظرية النفسية الإسلامية:

وبنظرة تدبر إلى طبيعة النفس الإنسانية ، يبرز التناسق والترابط الدقيق بين الإنسان والكون ، حيث تتجلى ظاهرة الازدواجية ، فالإنسان فى نظر الإسلام ، (مشتمل على استعداد للخير كما هو مشتمل على استعداد للشر . وليس أى العنصرين غريباً عن طبيعته ، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه ، وهو يشتمل نوازع فطرية تربطه بالأرض . ولكنه يشتمل فى الوقت ذاته نزعة ـ فطرية أيضاً ـ تهدف به إلى الارتفاع والسمو) (2) .

وتلك هى (**قاعدة النظرية النفسية للإسلام**)التى تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها . إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، وبطبيعة تكوينه من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين (71) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ (3) مزدوج الاستعداد فهو مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال .

فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، مزدوج

(1) الحشر : (20) .

(2) الإنسان بين المادية والإسلام : محمد قطب (69)بتصرف .

(3) ص : (71-72) .

الاتجاه ، فهو قادر على توجيه نفسه إلى الخير والشر سواء ، وهذه القدرة كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] . ويعبر عنها بالهداية تارة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[2] . و : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[3] .

وهى استعدادات فطرية كامنة ، توقظها وتشحذها وتوجهها الرسالات والعوامل الخارجية ، ولكن لا تخلقها ، وبجانب هذه الاستعدادت الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الإنسان هى التى تناط بها التبعة .

فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها ، وتغليبه على استعداد الشر ، فقد أفلح ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها ، فقد خاب : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[4] . وهنالك تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[5] . فهى حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ومنحة يقابلها واجب .

---

(1) الشمس : (7ـ8) .
(2) البلد : (10) .
(3) الإنسان : (3) .
(4) الشمس : (9ـ10) .
(5) المدثر : (38) .

ومن رحمته سبحانه ، أنه لم يدع الإنسان لاستعداد فطرته الإلهامى ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات ، وبذلك يتضح له الطريق . وهذه فى جملتها هى مشيئة الله بالإنسان ، والله سبحانه يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(1) (2) .

● ازدواجية .. التكوين النفسى الغريزى :

ولقد شاء الله سبحانه أن يجعل النفس الإنسانية مجبولة على ازدواجية فى تكوينها الغريزى ، حيث خلقها ثم أمدها (بطائفة من الغرائز تشبه الخطوط المتقابلة الدقيقة المتوازية) كل غريزتين منها متجاورتان فى النفس . وهما فى الوقت ذاته مختلفتان فى الاتجاه : الخوف والرجاء ، الحب والكره ، الاتجاه إلى الواقع ، والاتجاه إلى الخيال ، الطاقة الحسية ، والطاقة المعنوية ، الإيمان بما تدركه الحواس ، والإيمان بما لاتدركه الحواس ، حب الالتزام والميل إلى التطوع ، السلبية والإيجابية ، الاستعلاء والتواضع ، الشدة واللين . . وهَلُمَّ جرا . كلها غرائز متوازية متقابلة ـ كما نرى ـ وهى بتوازنها وتقابلها تؤدى مهمتها فى ربط الكائن البشرى بالحياة ، بيد أن أداء كل غريزتين من

(1) الرعد : (11) .

(2) فى ظلال القرآن : سيد قطب 3917/30 ـ 3918 بتصرف .

الغرائز المتوازية المتقابلة لهذه المهمة مشروطة بتنمية بل وتحقيق التوازن بينهما ، بحيث لا تطغى أو لا تبرز واحدة منهما على حساب الأخرى)[1].

• الازدواجية .. قاعدة الحركة الدعوية التربوية:

والداعية عندما يتأمل السنة الإلهية ، والناموس الكونى ، فإنه يشعر أن حركته الدعوية المباركة ، لا تشذ عن تلك الظاهرة ، لعلمه أن (التحرك لنصرة دين الله لم يعد أمراً نفلاً ، المسلمون فيه على الخيار ، بل هو على الوجوب ، دائر فيما هو معلوم من الدين بالضرورة : « **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه مات على شعبة من النفاق** » [2]. وهذا التحرك المبارك له خاصية متميزة ، فالإنسان فيه يأخذ من خلال عطائه للآخرين وهذه الطبيعة تأتى متناسقة مع خلق الله العظيم : ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾[3]. حركة مستمرة عن تعظيمها وتكبيرها لله سبحانه : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾[4] . فعملية التبليغ هى حديث للنفس قبل أن

(1) شخصية المسلم بين الفردية والجماعية . د/ سيد نوح (10 ـ 11) بتصرف .
(2) رواه مسلم (191) .
(3) النمل (88) .
(4) الإسراء : (44) .

تكون للآخرين ، ازدواجية خير ونماء ، تعطى لتأخذ ، وما تأخذ إنما هو تعطى ، فنظرة المستمع تقول لك ، وهل أنت كما تقول ؟! كما استفساره فتح لباب لم تَكُ أنت طارقه ، وهكذا معادلات الخير تنم عن روح جماعية ، لا مجال للفردية فيها ، فما من أحد دون أن يعين ، وفوق أن يعان) .

والدعوة إنما تنمو ويمكن لها ، بتعاون وتفاعل الداعية مع المدعو ، فى ازدواجية التفاعل والنفع والخير والنماء ، فالقائد ينمو بجهد جنوده معه ، والداعية عليه أن يسأله سبحانه العون ، ثم يبادر فيدعو أتباعه بأن يعينوه وبقوة ، فهو ليس أفضل من الحاكم الصالح والقائد الفذ (ذو القرنين) ، الذى كان رائداً فى فقه السنن وربط الأسباب بالمسببات ، و : ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾[1] .

وهى نفس كلمات (هاشم الرفاعى) ـ رحمه الله ـ فى رده على كل من يتمنى :

ترى هل يرجع الماضى فإنى . . أذوب لذلك الماضى حنيناً

دعونى هل من أمان كاذبات . . فلم أجد المنُى إلا ظنوناً

وهاتوا لى من الإيمان نوراً . . وقَوُّوا بين جنبى اليقينا

أمد يدى فأنتزع الرواسى . . وأبنى المجد مؤتلفاً مكيناً

---

(1) الكهف : (95) .

والداعية لا يغيب عنه أن بركة النفع والرقى والكمال التربوى ، إنما تأتى بتعاضد وتفاعل الداعية والمدعو ، وفى ازدواجية الخير والإيجابية والنماء ، وذلك كما نصحه أحد المربين من السلف الصالح : (إن أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً ، أو تصنع إليه معروفاً فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك . فانتفاعك به فى الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر . وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه ، فإنه عون لك على مضرتك ونقصك)[1] .

وهذه الظاهرة من شأنها أن تفتح باباً للداعية يطل منه على باب واسع من الفقه وهو فقه السنن . وتدعوه أن ينسق حركته الدعوية مع حركة المنظومة الكونية المؤمنة . فالداعية جزء من كل ، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ، ويدعو له بالبركة . وتدبر هذا التفاعل الكونى البديع : « **إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير** »[2] .

« **لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده** »[3] .

---

(1) الفوائد : ابن القيم (336) .

(2) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(3) رواه مسلم .

(3) ظاهرة التقليب فى الملفات

تظل تفسيرات الإنسان لقضاياه محدودة، وتبقى أفكاره عشوائية المعالم، وتظل نظراته وخططه المستقبلية قاصرة، مالم تقم على نظرة كلية واعية وشاملة، وذلك من خلال فقه سننه سبحانه فى الكون والحياة.

أيقنت بتلك الحقيقة الجوهرية، والقاعدة العظيمة، بينما كنت مشغولاً بدراسة إحدى الظواهر الدعوية الاعتلالية. ولكم كانت دهشتى عظيمة، وأنا أطالع تلك الرسالة الرائعة، من روائع الأدب العالمى، وذلك تحت عنوان « **بابا ينسى** » :

يابنى . . .

أكتب هذا وأنت راقد أمامى على فراشك، سادر فى نومك، وقد توسدت كفك الصغير، وانعقدت خصلات شعرك الذهبى فوق جبهتك الغضة.

فمنذ لحظات خلت كنت جالساً إلى مكتبى أطالع الصحيفة، وإذا بفيض غامر من الندم يطغى علىّ فما تمالكت إلا أن تسللت إلى مخدعك ووخز الضمير يصلينى ناراً.

وإليك الأسباب التى أشاعت الندم فى نفسى:

أتذكر صباح اليوم؟! لقد عنفتك وأنت ترتدى ثيابك تأهباً للذهاب إلى المدرسة، لأنك عزفت عن غسل وجهك، واستعضت عن ذلك بمسحة بالمنشفة. ولمتك لأنك لم تنظف حذاءك كما ينبغى. وصحت بك مغضباً لأنك نثرت بعض الأدوات عفواً على الأرض!.

وعلى مائدة الإفطار، أحصيت لك الأخطاء واحدة واحدة، فقد أرقت حساءك، والتهمت طعامك، وأسندت مرفقيك إلى حافة المائدة، ووضعت نصيباً من الزبد على خبزك أكثر مما يقتضيه الذوق!.

وعندما وليت وجهك شطر ملعبك، واتخذت أنا الطريق إلى محطة القطار، التفت إلىّ ولوحت لى بيدك، وهتفت: «مع السلامة يا بابا»، وقطبت لك جبينى ولم أجب، ثم أعدت الكرّة فى المساء، ففيما كنت أعبر الطريق لمحتك جاثياً على ركبتيك تلعب «البلى»، وقد بدت على جواربك ثقوب، فأذللتك أمام أقرانك، إذ سيرتك أمامى إلى المنزل مغضباً باكياً: «إن الجوارب، يا بنى، غالية الثمن ولو كنت أنت الذى تشتريها لتوفرت على العناية بها والحرص عليها!».

أفتتصور أن هذا يحدث من أب؟!!

ثم أتذكر بعد ذلك! ـ وأنا أطالع فى غرفتى ـ كيف جئت

تجر قدميك متخاذلاً، وفى عينيك عتاب صامت، فلما نحيت الصحيفة عنى وقد ضاق صدرى لقطعك على حبل خلوتى، وقفت بالباب متردداً، وصحت بك أسألك: « ماذا تريد؟!» .

لم تقل شيئاً ولكنك اندفعت إلىّ، وطوقت عنقى بذراعيك وقبلتنى، وشددت ذراعيك الصغيرتين حولى فى عاطفة أودعها الله قلبك الطاهر مزدهرة، لم يقو حتى الإهمال على أن يذوى بها! .

ثم انطلقت مهرولاً ، تصعد الدرج إلي غرفتك ؟!

يا بنى . . .

لقد حدث بعد ذلك ببرهة وجيزة، أن انزلقت الصحيفة من بين أصابعى ، وعصف بنفسى ألم عات! .

يا الله !!! إلى أين كانت « العادة » تسير بى ؟!! عادة التفتيش عن الأخطاء؟! . عادة اللوم والتأنيب؟! . أكان ذلك جزاؤك منى على أنك ما زلت طفلاً؟!!! .

كلا، لم يكن مرد الأمر أنى لا أحبك، بل كان مرده أنى طالبتك بالكثير ، برغم حداثتك! . كنت أقيسك بمقياس سنى ، وخبرتى، وتجاربى! .

ولكنك كنت فى قرارة نفسك تعفو وتغضى، وكان

قلبك الصغير كبيراً كبر الفجر الوضاء فى الأفق الفسيح .

فقد بدا لى هذا فى جلاء من العاطفة المهمة التى حدثت بك إلى أن تندفع إلىّ وتقبلنى قبلة المساء ! .

لا شىء يهم الليلة يا بنى ! ، لقد أتيت إلى مخدعك فى الظلام ، وجثوت أمامك موصوماً بالعار ! .

وإنه لتكفير ضعيف ! .

أعرف أنك لن تفهم مما أقول شيئاً ، لو قلته لك فى يقظتك ، ولكنى من الغد سأكون أباً حقاً . سأكون زميلاً وصديقاً ! . سأتألم عندما تتألم ، وسأضحك عندما تضحك ، وسأعض لسانى إذا اندفعت إليك كلمة من كلمات اللوم والعتاب ، وسأرد على الدوام ـ كما لو كنت أتلو صلاتى : « إن هو إلا طفل ؟ » .

لشد ما يحز فى نفسى أننى نظرت إليك كرجل ! ! ! . إلا أننى وأنا أتأملك الآن منكمشاً فى مهدك ، أرى أنك مازلت طفلاً وبالأمس القريب كنت بين ذراعى أمك ، يستند رأسك الصغير إلى كتفها .

وقد حملتك فوق طاقتك . . . !) . [1]

---

(1)كيف تكسب الأصدقاء؟! : ديل كارنيجي عن رسالة لنفجستون لارند269-272) .

وتعجبت كيف أن الفكر البشرى، فى لحظات الصفاء والخلوة بالنفس، وبعيداً عن أى هوى، من الممكن أن يهتدى لحقائق جليلة، كان من الأجدى له أن يصل إليها مباشرة ودون عناء من خلال فقه جيد واهتداء لمنهجه جل وعلا. وذلك حينما قرأت رسالة ذلك الأب وكيف أدرك أنه كم أجرم فى حق أحب الناس إليه، عندما مارس هوايته الغريبة فى تسقط زلاته، وإحصاء عثراته. وأخذ يقيم تصرفات صغيره الغض، بمقاييسه هو الناضجة والخبيرة، فكان ظلمه وجرمه فى حقه. حتى تاب أخيراً ونزل إلى عالم ذلك الصغير، وإلى مستوى تفكيره وموازينه، فاستراح وأراح.

وكان من حكمة المؤلف أن سرد تلك الواقعة تحت باب (لا تنتقد). وهى دلالة على أن تصرف الأب كان عيباً سلوكياً تربوياً تستهجنه الفطرة الإنسانية. حيث قاس تصرف الصغير الغض بمقياس الكبير الناضج المحنك!.

مراعاة المرحلة العمرية:

وهى لمحة توضح أنه من الأهمية بمكان أن لا تختلط مقاييس ومعايير الحكم عند البشر، بالنسبة للمراحل العمرية فى حياة الفرد! فيحاسبون الأطفال مثلاً بمقاييس الرجال. ويسوون فى الحكم بين من جهل ومن عرف!، وبين من يحبو ومن نضج!!!.

فمن سننه سبحانه الإلهية أن نقر بمراحل النمو والتطور النفسى لعمر الفرد، التى من شأنها أن تنتج تطوراً سلوكياً ونضجاً فى حياة الفرد. فلكل مرحلة عمرية مقاييسها ومعاييرها الخاصة بها.

مراعاة المرحلة الفكرية:

وهذه القاعدة، أو السنة الإلهية، تذكرنا بسنة إلهية طيبة أخرى، أو قاعدة ثابتة وقانون عام فى مجال آخر، مجال الفكر البشرى.

فلو تدبرنا حقيقة تلك الشخصية البغيضة المتسلطة، وكيف أبرز القرآن الكريم سلوكها الفظ، وتعاملها الشائه، مع الآخر. عندما يعميها الهوى فتختلط عندها المقاييس والمعايير، وهى شخصية الطاغية فرعون، وهو يبدأ حواره مع موسى - عليه السلام - بفتح ملف واقعة قديمة، وقضية عتيقة فى مرحلة غابرة، بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.[1]

لقد بدا على فرعون الغرور والغطرسة، والتظاهر بامتلاك النفس والصبر على الآخر، وهو يتظاهر بالحكمة حين استقبح أن يذكر واقعة قتل القبطى على يد موسى - عليه السلام - ، فسماها (فعلة).

---

(1) الشعراء (19، 20).

ولعل هذا الطاغيـة قـد أراد أن تكون له الريادة والسبق، وذلك بأن يضع قواعـد منهجيـة لكل طاغية بعده، فى كيفية التدرج فى كشف أوراق ملفات التهديد، ورقة ورقة! .

وتدبر كيف أن الهوى قد أعمى بصره، فاختلطت أوراقه ومعاييره ومقاييسه فلم يراع مرحلية التطور الفكرى فى اعتباراته، فأخذ يتهكم على هذا التحول فى سلوك وفكر موسى ـ عليه السلام ـ وكيف أنه كان فى سابق عمره، وفى مرحلة سابقة، لم يك يحمل هذه الفكرة الجديدة وتلك القضية الخطيرة التى من شأنها أن تهدد عرش الطاغية، وتقلب موازين البشر، بل والحياة كلها، قاعدة العقيدة والإيمان بالله وحده.

وتدبر كيف أن موسى ـ عليه السلام ـ قد حاول جاهداً أن يرد الطاغية إلى رشده، ويفهمه تلك القاعدة والسنة الإلهية، فى مراعاة مرحلية التطور الفكرى، حيث اعترف بتلك الفعلة فى شجاعة نادرة، ولكنه ـ عليه السلام ـ أعلن أنه حين فعلها، قد فعلها وهو جاهل، فلما يؤخذ بجريرة مرحلة قد تعداها، سلوكاً وفكرا، إلى مرحلة النضج؟! .

ولكن هذا ديدن الطغاة دوماً، والجاهلين بسنن الله عز وجل فى التطور الفكرى والنفسى والتربوى عند البشر.

فمن سننه سبحانه أن يؤخذ فى الاعتبار مراحل التطور

الفكرى عند البشر، التى من شأنها أن تنتج تطوراً سلوكياً ونضجاً فى حياة الفرد. فلكل مرحلة فكرية سلوكياتها، بل ومقاييسها ومعاييرها الخاصة بها.

وكذلك أيضاً، لأن سلوك أى فرد ما هو إلا ترجمة عملية لما يؤمن به من أفكار. فلكل فرد ولكل مرحلة أفكارها، ومن ثم سلوكياتها.

التربية النبوية ... ومراعاة المرحليات:

ولقد كان الحبيب - ﷺ - يراعى مثل هذه المرحليات العمرية والفكرية، فلا يؤخذ الفرد بجريرة مرحلة سابقة سواء عمرية أو فكرية.

أولاً: تدبر أشهر مثال لذلك السلوك النبوى التربوى الكريم، ومراعاة المرحلية العمرية وذلك فى سلوكه - ﷺ - مع عائشة - رضوان الله عليها - وكيف كان يتركها للعب مع صويحباتها وهى لم تزل صغيرة، ثم تطور التعامل معها عندما نضجت، حتى أثمر هذا التعامل الراقى عن باب عظيم فى المنهج يفرد له المجلدات حول فقهها - رضوان الله عليها - واستدراكها للرواة والفقهاء من كبار الصحابة - رضوان الله عليهم - .

وتأمل وصيته - ﷺ - الحكيمة البليغة: « **من كان له صبى فليتصابَ له** » . (1)

---

(1)رواه ابن عساكر .

وكيف كان ـ ﷺ ـ يصف « عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس» ـ رضى الله عنهم ـ ، ثم يقول : «**من سبق إلىّ فله كذا وكذا ،فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم**»(1)

وهذا الفتى النابه عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أحد الأطفال الذين تسابقوا، هو نفسه ذاك الوليد الذى دعا له الحبيب ـ ﷺ ـ فى مهده : « **اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل** » . وهو نفس الغلام الذى نصحه ـ ﷺ ـ بنصيحة جامعة اهتدت بها الأمة كلها، حيث رواها عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فقال : « كنت خلف النبى ـ ﷺ ـ يوماً ، فقال لى : **يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ،احفظ الله تجده تجاهك ،إذا سألت فاسأل الله ،وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله (تعالى) لك ،وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله (تعالى) عليك ،رفعت الأقلام وجفت الصحف**» . (2)

ثانياً : وتدبر كيف راعى ـ ﷺ ـ المرحلية الفكرية، وذلك فى تعامله ـ ﷺ ـ مع خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ عندما أسلم . وذلك على أساس أن الإسلام يجبُّ ما قبله فلم يفتح ـ ﷺ ـ يوماً ما ملفه السابق فى حربه ضد الدعوة الإسلامية، حتى

(1) رواه أحمد .

(2) رواه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح .

ولو كانت الأوراق الخاصة بمصيبة « غزوة أحد »، والتى أصيب فيها الحبيب -ﷺ- جسدياً ومعنوياً. بل أقر اختياره لقيادة الجيش من قبَل المسلمين فى « غزوة مؤتة »، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط منَ اسلامه، بل سماه (**سيف الله**).

وكذلك عندما رأى الحبيب -ﷺ- ذلك الراكب المهاجر «عكرمة بن أبى جهل» -رضي الله عنه- قادما قال: «**سيأتيكم عكرمة مؤمنا مهاجراً، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت**». [1]

هكذا كان سلوكه الرفيع -ﷺ- وتعامله التربوى الراقى مع العقليات والكفاءات.

اعتلالات دعوية.. وسلوكيات فرعونية:

وفى المجال الدعوى التربوى، كان على الدعاة أن يفطنوا لتلك الظاهرة الاعتلالية الغريبة، وهى (**ظاهرة التقليب فى الملفات**).

وهى ظاهرة تربوية اعتلالية، ومنبوذة، لها مظاهر عدة:

1 - منها أنك تجد أن البعض يتعامل بفرعونية مع الفرد، فيحاسبه ويقيمه على أساس أحداث ماضوية، وعلى هفوات سابقة، وعلى أخطاء اندثر زمانها، والتى على أساسها

(1) صور من حياة الصحابة، الباشا 52/2 .

توضع حوله الدوائر الحمراء، فتستحيل إلى أوراق تهديدية، تضم إلى ملفه، فتمثل عوائق قاسية تمنع تقدمه، وتقتل طموحاته فى أى تطور أو نمو مستقبلى.

والأخطر من ذلك أنه إذا سمح لهذا التابع المسكين، ومن خلال نوبة من نوبات الحرية والشورى العابرة، أن يستفسر عن وضعه، قيل له: لقد فعلت فعلتك التى فعلت! . وحينما يعترف: لقد فعلتها وأنا من الضالين. فلا يستمع لتعليلاته، ولا يؤبه له، سواء بقصد أو بغير قصد!!!؟.

والعجيب أنك ترى ذلك البعض يشكو باكياً محوقلاً ظلم الطغاة، وأعداء الدعوة والدعاة، . وهم يمارسون ، نفس سلوكه مع أتباعه!!!.

2 ـ ومنها أنك تجد البعض يتعامل مع الفرد كما تعامل ذلك الأب، الذى حرمنا خطابه، فيكون أسير عادة غريبة، وهى عادة التفتيش عن الأخطاء! عادة اللوم والتأنيب! ويحمله فوق طاقته، وطاقة مرحلته العمرية ، وطاقة مرحلته الفكرية.

وما كان الدافع لذلك السلوك هو انعدام الحب أو الود، بين الأب وصغيره، أو المربى وتلميذه، ولكنه التحميل فوق الطاقة والمطالبة بالكثير.

والمظاهر عديدة ومنوعة، ويومية، ولكن يجمعها كلها صفة

واحدة تمثل تلك الظاهرة .

إنصاف..لا إجحاف!:

وعلاج مثل تلك الظاهرة الدعوية ، أو ما يجب حيالها ، هو مجرد وقفة مراجعة للنفس ، وتدبر اللمحات النبوية الكريمة ، فى كيفية تعامل المربين مع أتباعهم .

فليس المطلوب هو مجرد الإعتراف بالخطأ ، بل المطلوب هو نية التغيير فى المعاملة مع الفرد وكأنه صديق ، ومراعاة مرحلته سواء العمرية أو الفكرية .

فالداعية البصير ، يدرك عظم المهمة الملقاة على عاتقه ، فهو أحد الرهط الذى يحاول العودة لحمل الراية رغم تناقض الخيرية ، ويعى أيضا مغزى تلك المواقف النبوية التربوية الراقية التى ذكرناها ، فيفهم (أن صاحب النشاطو الإنتاج والإندماج مع أحداث الدعوة اليومية تشفع هفواته إذا ما زل) . [1]

والمشاركة فى عملية النهوض الحضارى للأمة ، يلزمها جماعية فى العمل ، وبركة الجماعية عنده سبحانه عظيمة القدر : «من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» . [2]

ولكن المعايشة مع الجماعة يلزمها أن تتعود أن نزن المسلم

(1)القيادة: جاسم المهلهل 61.

(2) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

بحسناته وأخطائه معاً . فالإنصاف سلوك راقى ، وهو أيضاً (ميزان العدل فى الإسلام من غير إفراط ولا تفريط فإذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوىء ، وإذا غلبت المساوىء عن المحاسن لم تذكر المحاسن) . [1]

والكمال البشرى أمره صعب بل مستحيل لأنه(ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه : وهب نقصه لفضله) . [2]

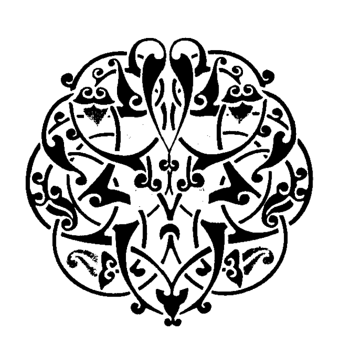
والمعايشة مع الناس يلزمها العدل والإنصاف والتغاضى عن الزلات وأن (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضج إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليه صار ممراً للشبهات) . [3]

هكذا علمنا سبحانه فى محكم كتابه الكريم : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾[4]

---

(1) سير أعلام النبلاء : عبد الله بن المبارك 352/8 .
(2) البداية والنهاية : مقولة لسعيد بن المسيب100/9 .
(3) نصيحة ابن تيمية لتلميذه ابن القيم .
(4) هود (114) .

وهكذا كـان الحـبـيـب ـ ﷺ ـ يعـامل أبتـاعـه ـ رضى الله عنهم ـ ، وكـذلك كـل من سـار على دربه، فى كل عـصـر وكل جيل، على أساس أن (الإسلام يجبُّ مـا قبله)، فكذلك الخير يجبُّ ما قبله من شرور، وأيضـاً فإن البذل الدعوى اليومى له ثمرات تذهبن آثار الهفوات والزلات .



(4) الظاهرة الارتحالية

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (1) .

هكذا كان مطلع تلك السورة العظيمة (سورة الأنعام) ، وهى تتنزل على جيل الخيرية الأول ، فى سنوات الرسالة الأولى ـ ربما الخامسة أو السادسة ـ وهى تربط بين قضية الخلق فى أضخم مجالى الوجود ، وهما السماوات والأرض ، ثم فى أضخم الظواهر الناشئة عن خلقهما ، وهما ظاهرتى الظلمات والنور ، وبين قضية الإيمان بالله وحده ، وموقف الكافرين ، الذين يتخذون شركاء لله يعدلونهم به ويساونه ، وما يسببونه من نشاذ وشذوذ يتعارض مع تلك المنظومة الكونية المؤمنة ، السابحة والعابدة لرب الوجود .

لقد كانت خطوة عظيمة فى مجال الفكر البشرى ، ودعوة فريدة للتأمل فى هذا الوجود الكبير ، والسنن الإلهية ، أو القوانين الثابتة والظواهر الكونية العامة ، التى تربط وتضبط

---

(1) الأنعام : (1) .

وتنظم مجالاته ، سواء فى الآفاق وهى الكون المادى ، أو فى الأنفس وهى الأحياء جميعاً ، بما فيها الإنسان .

وفقه تلك الظواهر ، هو مدخل للفقه الاجتماعى ، الذى يعطى أفقاً رحيباً ، لفقه الدورات الحضارية ، ولتفسير الظواهر الدعوية التربوية .

• الحيوية .. سمة كونية :

ومن هذه الظواهر المميزة لهذا الوجود الكبير ظاهرة الحركة المستمرة ، أو الحيوية المتجددة التى لا تَأْسَن ، أو (الظاهرة الارتحالية) ، التى تشمل الكون والحياة وكذلك الإنسان .

والله عز وجل يصور هذه الحركة الكونية المستمرة فى أكبر جرم كونى نراه ، وهو (الشمس)، فهى فى حركة دائبة سرمدية لا تهدأ ، أو هى تجرى فعلاً ، لمستقر ونهاية لا يعلمها إلا الله عز وجل : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [1] .

وهذه الحركة الدائبة ، ليست عشوائية بل تحكمها قوانين ثابتة وهى سنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير ـ إلا بإذنه تعالى ـ تحافظ على سيرها فى توافق عجيب ، ينتظم فيه كل شىء ، بما فيه

(1) يس : (38) .

ظاهرتى الليل والنهار : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

وكذلك لو تأملت أصغر جرم كونى وهو الذرة ، لوجدت أن العلماء قد أثبتوا أن الحركة المستمرة الدائبة لمكوناتها هى إحدى سماتها ومميزاتها الثابتة .

• الحيوية .. سمة قرآنية :

وهذه الظاهرة الحيوية ، يستشعرها المرء فى كل شىء ، فى هذا الوجود الكبير .

فعندما أراد الله عز وجل أن يضبط الحياة البشرية ، حتى تتوافق مع هذا الكون الخاضع المسبح لربه ، أنزل رسالاته على رسله عليهم السلام ، وعندما عرض القرآن الكريم مضمون هذه الرسالات ، لم يعرضها فى قوالب جامدة ، بل هى على هيئة دورات حركية حيوية .

ولو تأملت (سورة الأعراف) ، وكيفية عرضها لموضوع العقيدة لوجدت أنها قد عرضته (فى مجال التاريخ البشرى) فى مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى ، وعائدة

---

(1) يس : (40) .

إلى النقطة التى انطلقت منها . وفى هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد ﷺ ، تعرض الموكب الكريم الذى يحمل هذه العقيدة ويمضى بها على مدار التاريخ يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً بعد قبيل ، وكيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟ وكيف خاطبها الموكب وكيف جاوبته ؟ وكيف كان عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين فى الدنيا والآخرة[1].

• حيوية .. المنهج الإسلامى :

وعندما تتأمل « **السمات المميزة للمنهج الحركى للرسالة الخاتمة** » والتى بينتها سيرته ﷺ الجهادية ، فإنك تستشعر فيها مدى الحيوية المتدفقة والتى تكاد تنطق بالحياة المتحركة والمتجددة ، وهى سمات أربع :

السمة الأولى : الواقعية الجدية فى منهج هذا الدين ، فهى حركة تواجه واقعاً بشرياً ، بوسائل مكافئة .

السمة الثانية : الواقعية الحركية ، فهى حركة ذات مراحل كل مرحلة لها وسائلها ، وكل مرحلة تسلم إلى التى تليها .

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 8 / 1244 بتصرف .

السمة الثالثة: أن هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرجه عن قواعده وأهدافه المحددة .

السمة الرابعة : الضبط التشريعى للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى[1].

• فقه تصنعه الحركة :

والمسلم يدرك من أول يوم لتلقيه هذا الدين الحى المتحرك والمتجدد الحيوية ، أن الله عز وجل لا يهب نعمة الفقه فيه ـ أى الفهم العميق لآيات الله وسننه فى الكون والحياة والمجتمع - إلا للإيجابيين المتحركين الذين يدركون (أن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة ، ولا يؤخـذ من فقيه قاعد حيث تجب الحركة) ففى الآية : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[2] ترجح أن المؤمنين لا ينفروا كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 9/ 1432 ـ1433 بتصرف .
(2) التوبة : (122) .

بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وفقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة ، ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن ، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين ! ولكن هذا وهم لا يتفق مع طبيعة هذا الدين ، إن الحركة هى قوام هذا الدين ، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتـحركون به ، المجاهدون لتقريره فى واقع الناس ، المندمجون فى الحركة العملية به) [1] .

ولأن المسلم يعلم أنه جزء من هذا الوجود الكبير ، فإن حياته تتميز (بالظاهرة الارتحالية) التى تميز هذا الوجود . وحتى لا يقع بينهما الاصطدام والتضاد ، وحتى يحدث بينهما التوافق والتناغم ، كان عليه أن يلتزم بمنهج رب العالمين .

ولكى يمنّ عليه الله عز وجل بفقه هذا المنهج الفريد كان عليه أن يدرك أن تلك المنَّة لا تأتى إلا بالحركة والإيجابية والجهاد فى سبيله لنشر دعوته سبحانه .

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 11 / 1734 ـ1735 بتصرف .

• حيوية .. الحياة البشرية :

وهذ ه الظاهرة الحيوية ، هى سنة ثابتة ، وسمة بارزة للحياة البشرية .

وذلك لأن (الحركة قانون من قوانين هذا الكون وهى كذلك قانون من قوانين الحياة البشرية ـ بوصفها قطاعا من الحياة الكونية ـ ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة بغير ضابط ولا نظام ، فلكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره ، وله كذلك محوره الذى يدور عليه فى هذا المدار . وكذلك الحياة البشرية لابد لها من محور ثابت ، ولابد لها من فلك تدور فيه ، وإلا انتهت إلى الفوضى والدمار ، كما لو انفلت نجم من مداره)[1] .

فحياة الإنسان على هذه البسيطة ، ماهى إلا رحلة لكائن متحرك ، ارتحالى ، أو مسافر إلى استقرار ومصير : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [2] .

وهذا المصير ، إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض أو

(1) خصائص التصور الإسلامى : سيد قطب 41 .
(2) الحديد : (5) .

إلى نار وقودها الناس والحجارة ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾[1] .

• المؤمن على سفر :

وحياة المؤمن على هذه البسيطة ، تبرز فيها تلك الظاهرة واضحة جلية .

لذا كانت وصايا الحبيب ﷺ ، تركز على هذه المعانى وتبين أن حياته على هذه البسيطة ماهى إلا فترة سفر وارتحال للعبور إلى المستقر الخالد وهو جنة رب العالمين : (**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**)[2] .

ويوضح ﷺ فى وصية أخرى معنى السمة أو الظاهرة الارتحالية لحياة المسلم : (**مالى وللدنيا ، وما للدنيا ومالى ! والذى نفسى بيده ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها** »[3] أى (وما

---

(1) الإنشقاق : (6ـ12) .
(2) البخارى 8 / 110 .
(3) أخرجه الإمام أحمد فى المسند 1/ 301 .

مثلي ومثلها إلا كمسافر . ركب مطيته وسار في يوم هجير شديد قيظه فلما اشتد به التعب نزل ، فقال تحت شجرة فترة وجيزة لا تتجاوز الساعة ريثما ابتلع أنفاسه ، وعاد إليه نشاطه ، ثم راح وترك الشجرة مستأنفاً السير من جديد ليصل إلى نهاية رحلته)[1] .

والقدرة على مواصلة هذا السفر هو الذى يفاضل بين الناس وقدراتهم الذاتية للنجاة ولتحمل الأعباء والتكاليف : (**إنما الناس كإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة**)[2]والراحلة هى الناقة القوية السريعة السير ، وتأمل نسبة من يتحمل ، ويواصل ذلك المسير .

● حيوية .. منشودة :

وفى المجال الدعوى التربوى ، كان على الدعاة أن يدركوا مغزى تلك الظاهرة فى مجال دعوتهم وفكرتهم ، وأن طريقهم ليس بدعاً بين تلك المجالات .

فالمجال الدعوى التربوى إنما يقوم على الحركة التى تثمر الحيوية ، فى المنهج ، وفى نفوس حامليه ، ويقوم على التطور الذى يثمر التجديد وعدم الرتابة ، وذلك بضوابط توازن بين

(1) توجيهات نبوية على الطريق : د/ سيد نوح 1/ 25 .
(2) البخارى 8/ 130 .

الثوابت والمتحولات أو المتغيرات .

وأساس التربية هو الحركة والانطلاق والاختلاط فى دنيا الناس ، لأن خيرية الأمة إنما كانت لأن الله عز وجل قد أخرجها وابتعثها بل وأوجدها ، للناس لكل الناس ، لتتحمل واجبات القوامة والشهادة ، وذلك لتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر حاملة فكرتها الخالدة السامية ، ألا وهي الإيمان بالله تبارك وتعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[1] .

وبناء هذه الأمة لا يكون إلا من خلال الواقع ، والحركة بالمنهج خلال هذا الواقع .

وشواهد القرآن الكريم كثيرة ، وكلها تدلل على أن من يحمل فكرة ، عليه أن يقوم بها ، ويتحرك بها ، ويدرك تبعاتها ، لذا فقد كانت الخطوة الأولى للحبيب ﷺ هى القيام بالأمر العظيم ، وهو الدعوة ، وتطليق الراحة والدعة ، وذلك استجابة للأمر الإلهى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ** ① **قُمِ** . . . ﴾[2] .

(1) آل عمران (110) .
(2) المزمل (1 ، 2) .

وعندما حكى القرآن الكريم ، عن ذلك الصحب المؤمن ، وتجربتهم الدعوية التغييرية ، وضح أنهم قد تحركوا بفكرتهم إلى عالم الواقع ، فقاموا : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾(1) .

وكذلك عندما بدأ العبد الصالح تجربته التعليمية مع موسى عليه السلام انطلق به ومعه وتحركا عملياً : (**فانطلقا . . . .**)(2) .

• ركب المرتحلين :

والداعية . . عندما يعلم أنه جزء من كل ، فهو أحد أعضاء ذلك الركب العظيم ، (ركب المرتحلين) الذى يشمل هذا الوجود الكبير .

لذا كان عليه أن يفهم معنى ومدى أهمية التوافق والتناغم مع حركة الوجود المطيع والمسبح لربه ، ويدرك خطر النشاز .

وأن يدرك قواعد تلك (الظاهرة الارتحالية) ، وقوانين تلك السنة الإلهية ، التى تنشد الحركة والحيوية ، لكل الموجودات فالمطلوب منه ليتوافق ولا يشذ شرطان :

أولاً : عليه أن يتوافق ويتناسق جسدياً ومادياً ، بالحركة والقيام والانطلاق والاختلاط والخروج للناس ، لنشر فكرته .

---

(1) الكهف : (14) .
(2) الكهف (71 ، 74 ، 77) .

ثانياً : عليه أن يتوافق فكرياً ، بأن يتطور ويستزيد ويتحرك ولا يقف أسيراً لمرحلة فكرية معينة .

وذلك من خلال فقه جيد وواعٍ ، ليوازن بين ثوابت لا يحيد عنها ، ومتغيرات تعطيه حقه من المرونة والحركة والحيوية والإبداع .

فلا يكون مثل البعض الذى يؤثر التصومع والتقوقع والتحوصل بل والتشرنق ، سواء المادى الجسدى أو الفكرى العقلى .

ولا يستسلم لهواة قتل القدرات ، ومثبطى ذوى العزمات ، وراغبى تخطيئ الإبداعات ، وعاشقى تقييد الكفاءات .

ولا ينضم لركب حاملى لواء تبديع الاجتهادات ، وأنصار الحجر على العقليات .

وهذا لا ينطبق فقط على الأفراد ، بل على الدعوات والجماعات .

فالحياة . . حركة حيوية ، تتميز بالظاهرة الارتحالية .

والوجود ما فيه إلا معبود يُعْبَد ولا يتغير سبحانه ، وعابد يَعْبُد متغير وارتحالى .

(5) ظاهرة الغرور التنظيمى

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ
(٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)
وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ
(١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ ﴾[1] .

آيات معدودات طيبات تتنزل على قلبه - ﷺ - فى سنوات الدعوة الأولى .

تحمل بياناً معجزاً من الرحمن ، حول آلاء الرحمن ، وإشهاد الوجود كله على ذلك بما فيه عباد الرحمن .

والذى يأتى فى صورة إعلان علوى عام فى ساحة الوجود الكبير ، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة ، وإشهاد عام للوجود كله على الثقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله[2] .

ويبدأ ، البيان ، بمطلع يعرض بعض آلائه سبحانه المترابطة

(1) الرحمن (1 - 13) .
(2) فى ظلال القرآن : سيد قطب 3445/27 بتصرف .

وهى تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وتعليمه النطق أو الخير والشر ، وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر فى بروجهما ، وجعل نجم السماء أو النبات الذى ينجم بلا ساق ، والشجر وهو كل نبات له ساق ، ينقادان لله سبحانه ، ثم رفع السماء ، ووضع ميزان وضوابط لهذا الوجود لا ينبغى مجاوزتها وكذلك نعمة خلق الأرض وتمهيدها لتلك الخلائق .

وبتدبر مفردات هذا المطلع ، وبنظرة كلية شاملة ، نجد أن آياته - وفى تلك المرحلة المبكرة من عمر الدعوة - تمثل نقلة فكرية ، ودفعة راشدة تأخذ بيد ذلك المخلوق المكرم ، ذلك الإنسان ، لتسمو بفكره ، وليتدبر مغزى ذلك البيان الإلهى الفريد وليربط بين مفرداته ، فيدرك ويفهم بعض القضايا الكلية الخطيرة ، تلك الثوابت التى لا تتحول ولا تتبدل .

• **أولاً قضية الوجود كله** : وهى قضية أنه ليس فى هذا الوجود إلا حقيقتان ، ليس هنالك سوى خالق سبحانه ، ومخلوق .

وذلك كما نستشعرها من مغزى ذكر اسمه سبحانه فى أول البيان ، ثم ذكر الخلائق بعد ذلك إجمالاً .

• **ثانياً : قضية دور المنهج** : وهو القرآن ، فى تنظيم العلاقة بين الخالق سبحانه والمخلوق .

وذلك كما يتضح من مغزى ذكر القرآن وكأنه أداة ربط بين

الله سبحانه ، وبين الخلائق .

● **ثالثاً : قضية طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق :** فالعلاقة هى ببساطة علاقة عبودية ، علاقة معبود يُعبد ، وعابد يَعبد .

وهذا ما نلمحه من استشعار ذلك الانقياد الجماعى الشامل لله سبحانه ، من قِبل الخلائق جميعها بما فيها النجم والشجر .

● **رابعاً : قضية دعائم وسمات تلك العلاقة :** فهى علاقة قائمة على العدل ، على الموازين السماوية ، ويظلل صفة (العدل) تلك صفة أخرى لا تنفكّ عنها ، وهى صفة (الرحمة) .

وذلك عندما نستشعر تلك الدعامتين من تدبرنا لمغزى إيراد اسم من أسمائه سبحانه الحسنى فى المطلع ، وهو (الرحمن) ، ثم ذكر (الميزان) ، وأمر الخلائق بعدم تجاوزه .

إذن العلاقة هى علاقة عبودية تقوم على دعامتين أساسيتين ، هما العدل والرحمة .

● **خامساً : قضية العلاقة بين هؤلاء الخلائق :** وجميع الموجودات - ومنهم الإنسان - الذين يجمعهم علاقة العبودية لله سبحانه ، إن العلاقة بينهم علاقة تعايش وتواد ، علاقة تظللها موازين العدل والرحمة .

فرفع السماء ، ووضع الموازين ، وتمهيد الأرض للخلائق وكذلك إنبات النبات ، كلها آيات توحى بعلاقة التواد والتعايش .

• **سادساً : قضية دور الإنسان** : ذلك المخلوق المميز عن جميع الخلائق بنعمة البيان ، نعمة النطق والفكر ، ومعرفة الخير والشر .

إنه دور القيادة ، دور الأستاذية على الخلائق ، والاستخلاف على الأرض .

• **سابعاً : قضية دور المسلم** : الذى يتميز عن سائر البشر ، يتميز بأنه يستمد موازينه وفهمه من منهجه سبحانه ، من القرآن .

إنه دور الأستاذية على البشر ، دور الريادة والقيادة لبنى الإنسان .

لهذا فإن المسلم هو المرشح من قِبَله سبحانه ، بدور راشد واعٍ ، وذلك من خلال حمله لمنهج ربَ العالمين .

إنه الدور الراشد ، القائم على قواعد وأصول يستمدها من القرآن الكريم ، على تلك الموازين الربانية .

تلك الموازين التى تتسم بالعدل والرحمة .

• **ثامناً : قضية فقه السنن الإلهية** : قضية سنن الله عز وجل فى الأنفس - أى عالم البشر - والآفاق - أى عالم المادة - التى لا تتبدل ولا تتغير ، ولا تحابى ، وهى السنن أو القوانين والقواعد التى خلقها سبحانه لتنظم وتحكم حركة هذا الوجود الكبير ، حركة الكون والحياة والأحياء ، وتحكم حركة التاريخ ، وتتحكم بالدورات الحضارية ، وعوامل السقوط والنهوض الحضارى .

وهى قضية نستشعرها من مغزى ذكر الخلائق جميعها ، فى علاقتهم التعايشية ، وكأنهم عائلة واحدة مترابطة .

ثم ذكر الميزان ، ذلك الضابط الحاكم لحركتهم السرمدية ، إذن فهناك حركة ، وهناك موازين ، وقواعد تضبط وسنن تتحكم .

وتلك القضية الجليلة هى موضوع بحثنا هذا .

• **مفهوم الفقه الاجتماعى** :

لذا فإن المسلم وهو يؤدى دوره القيادى الراشد ، لا ينبغى أن يباشره وهو بمعزل عن فهم تلك السنن أو القواعد ، والقوانين الربانية الثابتة ، التى تحكم حركة الدورات الحضارية ، وناموسية التاريخ ، التى تنطبق عليه كما تنطبق على كل الموجودات دون محاباة ، ودون استثناء .

بل عليه أن يستعين ببعضها على بعض ، ولا يصطدم بها فإنها غلابة ، وعليه أيضاً أن يبنى حياته على أساس من التعايش والتوافق والتناغم مع هذا الوجود ، ولا يجب أن يفسر قضاياه بمعزل عن ذلك الوجود .

فهو جزء من كل ، وإن كان رائداً وقائداً ومرشداً .

وفقه التعامل مع تلك السنن الإلهية ، والبحث فيها ، هو ما يعرف (**بالفقه الاجتماعى أو الحضارى**) .

• ضرورة النظرة المنهجية :

لذا كان من الأهمية بمكان أن نبتعد عن المنحى الجزئى القاصر ، بل يجب أن نتعود المنحى المنهجى الواعى ، والكلى الشامل ، فننظر إلى أى قضية ، نظرة كلية ، ونحاول ردها إلى تلك الموازين والثوابت .

ومن خلال فقه سننه سبحانه الإلهية ، نجد أن أى قضية ما هى إلا جزء من كل ، وأن الأمر المبهم صار واضحاً ، وأن الشئ المحير أصبح مفهوماً .

• أسئلة ... حول الظواهر الكونية :

تعجبت من أسئلة صغيرى الكثيرة ، والتى من أهمها وأعجبها :

لماذا يظهر القمر نهاراً وليلاً ؟ ولا تظهر الشمس إلا

نهاراً ؟! . ولماذا يبدو القمر نهاراً باهتاً ؟ ويظهر ليلاً واضحاً متلألأ ؟! .

استجمعت ذاكرتى ، لأستعيد بعض المعلومات من المصادر الموثوقة ، حتى أفسر له تلك الظواهر ببساطة .

فشرحت له أن الشمس نجم مستقل ذو فاعلية ، وإن كان جزء من هذا الكون ، وأنها تشع حرارة وضَوْء ، فتنير الأرض والقمر ، وتشيع فيهما الدفء ، وأن لها من القوة والجاذبية التى تكون كالخيط الذى يجعل الكواكب تدور حولها وترتبط بها .

والأرض تدور حول الشمس دورة كل سنة ، وتدور حول نفسها - أى على محورها -- مرة واحدة كل يوم ، والجزء المواجه للشمس يكون مضيئاً ، فيكون النهار على هذا الجزء ، وأن الجزء الآخر يكون مظلماً ، فيكون الليل به ، ويكون تعاقب الضوء على سطـحها مرة كل يوم ، لهذا يكون اليوم ثابتاً أربعاً وعشرين ساعة ، ويـكون النهار والليل متغيرين فى الطول على مدار السنة .

والقمر ما هو إلا تابع للأرض ويرتبط بها ، ويدور حولها فى مدة سبع وعشرين يوماً واثنتى عشرة ساعة ، وفى نفس الوقت يدور مرة واحدة حول نفسه ، وهو كالأرض يستمد نوره من الشمس ، ويكون تعاقب الضوء على سطحه على مدار الشهر تقريباً .

أما بالنسبة لكسوف الشمس فإنه يحدث عندما يمر القمر بين الشمس والأرض .

ويحدث خسوف القمر عندما تمر الأرض بينه وبين الشمس .

لذا فإن القمر ، ذلك التابع ، يكون باهتاً فى وجود الشمس ، ذلك المستقل ذو الضوء القوى .

ويبدو القمر فى قمة التلألؤ والضياء أثناء الليل ، عندما تغيب الشمس[1] .

وهذا التناسق والتوافق التنظيمى ، والتكافل فى أدوار كل من المستقل والتابع هو من أبرز سمات المنظومة الكونية .

• فى المجال .. الأسرى والاجتماعى :

انساح هذا المفهوم لتلك السنة الإلهية الكونية ، وامتد بى إلى المجال الأسرى والاجتماعى .

فالأسرة هى أحد مكونات المجتمع ، تماماً مثل علاقة المجموعة الشمسية بغيرها من المجموعات فى هذا الكون الفسيح .

---

(1) سلاسل سوفنير – عالم المعرفة والمعلومات – 124 سؤال وجواب فى الكون والأرض : 9 - 16 بتصرف .

والأب داخل الأسرة هو الشخصية المحورية ، الشخصية المتبوعة ، ودوره يشبه دور الشمس فى مجموعتها .

وباقى أفراد الأسرة ، الأم والأبناء دورهم يشبه دور توابع الشمس كالأرض والقمر .

وحتى يتحقق هدفنا لإيجاد المجتمع الصالح يجب أن نهتم بتحسين علاقة الأسرة بغيرها من الأسر داخل المجتمع الواحد ، ولن تؤدى الأسرة دورها المطلوب دون أن نهتم أولاً بوجود ذلك التناسق والتوافق والتكامل فى أدوار كل من الأب ، وباقى الأفراد حوله داخل الأسرة الواحدة .

إذن الأصل فى صلاح المجتمع ، هو إيجاد تلك المنظومة الوظيفية المتكاملة المتناسقة ، فى العلاقة الداخلية للأسرة الواحدة .

• فى المجال ... الدعوى والتربوى :

ثم انسَاح بى هذا المفهوم لتلك السنة الإلهية ، إلى مجال آخر - وهو حجر الزاوية فى هذا البحث - وهو المجال الدعوى والتربوى .

حيث نجد نفس الظاهرة ، وبنفس توابع وجودها ، سواء كانت مميزات ، أو عيوب واعتلالات .

فهناك بعض الشخصيات التى تشبه الشمس ، فهى شخصية مهيمنة ، تؤثر فيما حولها إما سلباً أو إيجاباً ، ويدور المجموع حولها ومعها .

وهناك بعض الشخصيات التى تشبه القمر أو الأرض ، فتعتمد على غيرها ، فى حركتها وفى فهمها ، بل وفى مختلف الجوانب الحياتية ، ويكون وجودها مرتبط بوجود الشخصية المتبوعة .

وقد يصيب البعض العجب لمركزه التنظيمى المتقدم ، ويهمل التقدير لأدوار غيره من أعضاء المنظومة الدعوية ، فيحدث الخلل ، وتنشأ ظاهرة دعوية اعتلالية تسمى (**ظاهرة الغرور التنظيمى**) ، والتى تؤدى إلى حالة من عدم التناسق والتوافق والتكامل التنظيمى .

وحتى نبحث فى ضوابط تلك الظاهرة الدعوية التربوية ، ومن أجل فقه إشكالية المتبوع والتابع ، بصورها المتعددة مثل قضية الشخصية المحورية ، أو قضية الهيمنة الفكرية ، وحرية الإبداع ، أو قضية الارتباط القرارى واستقلالية التجربة ، أو قضية المركزية الحركية واللامركزية ، يجب ألا يفوتنا - وهو ما أكدنا عليه آنفاً - أن تكون تلك الضوابط فى ضوء فقه السنن الإلهية .

والضوابط منها ما يختص بالشخصية المحورية ، ومنها ما يختص بالشخصية التابعة .

• أولاً : فيما يختص بالشخصية المحورية :

(1) أن تدرك أن دورها - سواء كان فطرياً أو مكتسباً - هو قدر من إرادة الله عز وجل فى هذا الوجود ، فلا تنسى فضله سبحانه ونعمته عليها ، وتسأله سبحانه التوفيق والسداد والثبات وكُلٌّ مُيسر لمَا خُلقَ له من خلال وحدة العبودية لله سبحانه .

ولا تنسى مغزى هذه الحركة الكونية العابدة ، تحت رعايته سبحانه ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (1).

(2) أن تدرك أن وظيفتها ودورها ، هو جزء من كل ، جزء من سننه سبحانه فى هذا الوجود ، والفن فى أداء دورها هو كيفية التعامل مع هذه الظاهرة ، وسننه سبحانه فيها ، وعدم الاصطدام بها فسنن الله سبحانه غلابة ، وذلك من أجل القيام بواجب الاستخلاف والاستعمار .

وذلك تماماً مثل وجود الشمس كمصدر للدفء والضوء فى مجموعتها ، ومع هذا فهى كذلك جزء من هذا الكون الفسيح .

(3) ألا تنسى أنها قدوة ، وأسوة ، فليس سهلاً أن تمتلك

---

(1) يس : (38) .

سمات المحورية ، لأن وجودها ضرورياً لضبط الحركة البشرية أو الدعوية ، وذلك يتطلب منها جهداً وتفاعلاً ، بحيث تصبح عامل جذب لربط من حولها ، تماماً مثل جاذبية الشمس .

(4) أن تتجنب الظواهر الاعتلالية لذلك الارتباط ، فتعطى شيئاً من حرية التصرف والحركة والمرونة لمن حولها ، وألا تجعل وجودهم باهتاً ، كما يحدث للقمر نهاراً فى وجود الشمس .

فلكل دوره الخاص المستقل الذى لا ينكره ناكر ، وهو كذلك الدور الذى يخدم ويتوافق مع حركة المجموع : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

(5) أن تُسرَّ لتقدم الأفراد حولها وإبداعاتهم وتلألؤهم حتى وإن غابت ولو مؤقتاً ، وذلك كما يتلألأ القمر ليلاً فى غياب الشمس المؤقت ، وكذلك كما يُسَرَ الأب لتقدم أبنائه .

فالغياب المؤقت يصبح مقصوداً تربوياً رفيعاً ، إذا أدى إلى إعطاء فرصة لصف متأخر أو رديف ليتدرب على تحمل المسئولية .

(6) ألا تدع للبعض أن يحول بينها وبين أى فرد من الأفراد لا نقول بالوشاية والوقيعة ، ولكن لطفاً وأدباً نقول ، بعدم

---

(1) يس : (40) .

المحاباة والنزول على رأى البعض دون البعض ، وعدم إيثار البعض بالرعاية والاهتمام والودّ دون البعض ، وإلا عانوا من هذا الحصار الذى يشبه خسوف القمر عندما تتدخل الأرض بينه وبين الشمس ، فقد يصيب ذلك الأنانى دعوات أهل الخير لذلك المخسوف المظلوم ، أو يلحقه اتهاماً ليس بأقل مما اتهم به يعقوب - عليه السلام - من خير الأبناء : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

(7) يجب ألا تسمح بمن يحول بينها وبين وصول دفئها ، ورعايتها للبعض ، وإلا تعرضت هى أيضاً لاعتلالات خطيرة ، تحتاج إلى صلوات وأدعية وابتهالات ، تماماً مثلما يحدث للشمس حينما يصيبها الكسوف ، عندما يتدخل القمر بينها وبين الأرض فيستأثر بها وحده حاجباً إياها عن الأرض .

(8) أن تعى أنها - وكذلك الجميع حولها - فى حاجة إلى حركة وتطور ونماء وتربية مستمرة ، تماماً مثل ذلك الدوران الشامل والحركة الحيوية التى تشمل الشمس والأرض والقمر ، فى منظومة كونية عابدة : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[2] .

ثانياً : ما يختص بالشخصية التابعة :

(1) ألا يستأثر بالخير دون غيره ، ويطغى على حقوق أنداده فالخير والرعاية من حق الجميع .

تماماً مثلما يستمتع أعضاء المجموعة الشمسية من كواكب

---

(1) يوسف : (8) .

(2) يس : (40) .

وأقمار بضوء ودفء الشمس .

وحتى لا يتعرض لسخط البعض ، ولا ينسى ما حدث ليوسف - عليه السلام - مع خير الإخوة .

(2) أن يثق فى نفسه ، ويحاول الاعتماد على قدراته ، المشروطة بعدم معارضتها ، لحركة المجموع .

لأن لكل موجود فى هذا الوجود دوره : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] .

(3) أن تقدر أى مسئولية تكلف بها ، ما دام يخدم حركة المجموع ويكون لابتغاء رضوان الله تعالى .

(4) ألا يصيبها أنانية أو حب ظهور ، بالتقرب والانفراد بالشخصية المحورية ، فتحدث تلك الاعتلالات التى وضحناها آنفاً سواء أصابت الشخصية المحورية ، أو انعكس عليها ، تماماً مثل كسوف الشمس وخسوف القمر ، فيصيبها دعاء المظلومين .

(5) ألا تغتر بقدرات أو مسئوليات تتحملها ، أو تكاليف تختص بها ، فقد يكون ذلك التلألؤ والبريق هو من نتاج معاونة البعض الآخر ، وهنا يجب عدم بخس الناس أشياءهم ، والاعتراف بفضل من عاونها .

وتتذكر أن تلألؤ القمر هو نتاج معاونة الشمس ، وفى ظل رعايته سبحانه .

---

(1) يس : (40) .

(6) ظاهرة بخس أشياء الناس

خرج النبى - ﷺ - يوماً فجاء بعيرٌ يرغو حتى سجدَ لهُ ، فقال المسلمون : نحن أحقُ أن نسجدُ للنبى - ﷺ - . . فقال : « **لو كنت آمراً أحداً أن يسجدَ لغير الله - تعالى - لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، تدرون ما يقول هذا ؟ ، زعم أنه خدم مواليه أربعين سنة ، حتى إذا كبر نقصوا علفه ، وزادوا فى عمله ، حتى إذا كان لهم عرس أخذوا الشَّفَار لينحروه** » ـ أى أخذوا السكين ليذبحوه ـ فأرسل إلى مواليه فقص عليهم ، قالوا : صدق والله يا رسول الله ، قال : « **إنى أحب أن تدعوه لى** » فتركوه [1] .

تعمقت فى نفسى ، قاعدة تربوية عظيمة ، وأنا أطالع هذا الكنز النبوى العظيم .

وهى أن النفس المسلمة ستظل حبيسة جدران المفاهيم القاصرة للنصوص ، وتبقى بعيدة عن المعانى التربوية الرفيعة للقرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكذلك تظل دراساتنا للظواهر الدعوية والاعتلالات التربوية تراوح فى طور المراهقة الفكرية ، ما لم تتم الخطوة ، أو القفزة المنشودة للتفاعل مع المنهج ، وذلك

---

(1) أخرجه البخارى فى مسنده 173/4 و 181 و 76/6 نقلاً عن : قصص الحيوان فى الحديث النبوى : عبد اللطيف عاشور ـ 36 .

من خلال شروط أو أطر ثلاثة ، أساسية متوالية ومتلازمة ، وهى :

1- الإطار الشرعى : وهو القاعدة ، ويقصد بها الفهم الجيد والصحيح لتفسير النصوص ، من مصادرها المعتمدة .

2- الإطار التربوى : ويقصد به ضرورة الغوص فى المقاصد البعيدة لمغزى النصوص ، على أساس أن الفائدة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبذلك تزال الحواجز والأحجبة بل والرّان الذى يقلل من قيمة النصوص التربوية ، وأثرها على النفوس .

3- الإطار الشمولى أو الكلى : ويقصد به النظرة الشاملة للأشياء ، وذلك من خلال دراسة السنن الإلهية ، فى الأنفس أى (عالم الأحياء ،) وفى الآفاق أى (عالم المادة) ، ويقصد بها القواعد العامة الثابتة والمطردة ، التى تضبط وتتحكم فى حركة جميع الخلائق .

وبناءً على هذه القاعدة ، وبعيداً عن الفوائد القريبة والعظيمة لهذه التوجيهات النبوية الكريمة ، والتى وردت فى الحديث الشريف ، من حيث نصرة المظلوم ، وأن السجود لا يكون إلا لله سبحانه ، ومقدار حق الزوج ، ثم أهمية خلق الوفاء بين الخلائق .

فلقد لفت نظرى تلك الفائدة التربوية البعيدة للنص ، وهى أن لمسة التقدير لكل صاحب تاريخ فى العطاء ، ولكل من أنجز عملاً متميزاً وبذل جهداً ملموساً فى أى حقل ، هو من القواعد والأسس التى عليها قامت العلاقات بين الخلائق جميعها ، بل هو من سننه سبحانه ، والتى بتضييعها يحدث الخلل المعنوى والمادى ليس فى عالم الأحياء فقط ، بل فى ميزان هذا الكون الكبير .

• تشريف ... وتقدير :

وهو باب عظيم ألمح إليه القرآن الكريم فى غير موضع ، ويكفينا هنا بعض الأوسمة التقديرية ، واللمسات التشريفية العلوية الكريمة .

فتدبر : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1] فلم تك تلك الكلمات العظيمة القدر ، مجرد مفردات لذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين ، عندما علم الحق سبحانه مقدار ذلك الصراع النفسى الذى انتصروا عليه ، بطاعتهم لقيادتهم وتمت بيعتهم تحت الشجرة ، فرضى عنهم ، وكافأهم ،معنوياً بهذا الرضا

(1) الفتح : (18) .

والسكينة ، ومادياً بالفتح القريب .

لم تـك كـذلك فقـط ، بـل غـدت دستوراً تربوياً ، أكمله الحبيب - ﷺ - حيث بشرهم بقوله : « **أنتم اليوم خير أهل الأرض** »(1) .

وبقيت معلماً خالداً ، يعلم الأجيال المسلمة - خاصة المربين من الدعاة - فى كل عصر وفى كل مصر ، بأن التقدير والتشجيع لمن يقوم بعمل مميز هو من صلب المنهج ومن قواعد ولوازم التربية .

• منحة .. تقديرية :

وعندما يعلن الحق سبحانه فى محكم كتابه الكريم ، أنه أعطى موسى - عليه السلام - كتاباً فصَّل فيه كل شئ ، وجعله هدى ورحمة ، لعل قومه يؤمنون بلقاء الله فى الآخرة : ﴿ **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾(2) . فلو تدبرنا المغزى التربوى الـرفيع لبعض ما جاء فى البيان العظيم ، وهو قوله سبحانه : ﴿ **تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً** ﴾ ، خاصة ذلك المعنى الذى اختاره ابن جرير - رحمه الله - فى تأويله : (ثم آتينا موسى

(1) رواه البخارى .
(2) الأنعام : (154) .

التوراة تماماً لنعمنا عنده ، وأيادينا قبله ، تتم به كرامتنا عليه ، على إحسانه وطاعته ربه ، وقيامه بما كلفه من شرائع دينه ، وتبييناً لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم) . لوجدنا معلماً قرآنياً ، بالغ الروعة فى مغزاه التربوى ، وكيف أن موسى -عليه السلام- وهو من هو ! ، كان فى حاجة للطيفة ربانية ، تشعره بالتقدير لتاريخه الناصع ، وكذلك بالامتنان على دوره الدعوى وعلى طاعته لربه جل وعلا ، فما بالك بمن هو دون تلك القمة ويسكن السفح ؟ ويكون فى مسيس الحاجة لكلمات تقديرية بسيطة .

• التقدير .. مرتكز أخلاقى :

وعلى هذا النهج التربوى ، ومن هذا المعين الصافى ، نجد أن حملة مشعل الدعوة على مر التاريخ البشرى ، وروَّاد مسيرة الحركة الدعوية ، قد خطوا معالماً خالدة فى هذا الباب لا ينكرها إلا من استحبَّ العمى على الهدى والعياذ بالله .

ويكفينا أمثلة قليلة تمثل غيضاً من فيض ، فتأمل كيف أن نبى الله شعيب -عليه السلام- عندما أعلن الخطوط العامة لدعوته : **﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا**

تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[1] .

لقد أعلن أن المبادئ العامة هى :

1- الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وهى القضية الرئيسية فى كل دعوة ، قضية العقيدة والدينونة ، قضية التوجه لله وحده ، بسائر العبادات والشعائر .

2- الدعوة إلى الأمانة والعدالة ، وهى قضية من باب الشريعة والمعاملات والأخلاق ، التى تنبثق من قضية العقيدة والدينونة ، أو هى قضية التلقى منه سبحانه ، وهى القضية التى ترتبط بواقع كل دعوة ، وبأحوال الناس فى ذلك العصر .

ولو تدبرنا أبرز معلم من معالم قضية الأمانة والعدالة ، أو الجانب الأخلاقى في دعوته - عليه السلام - لوجدناه يتمثل فى : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ .

وحتى نفهم مغزى عدم بخس أو نقص وانتقاص أشياء الناس يجب أولاً أن نبرأ بعقولنا أن تحصر معناه فى دائرة ضيقة تبعده عن معناه الشامل فتبخسه مفهومه ، وتبخس أثره التربوى الرفيع .

فالدعوة إلى عدم بخس أشياء الناس ، هى دعوة إلى المعروف .

---

(1) هود : (84 - 86) .

ومعنى (المعروف) هو ما تقره وما تعرفه الفطرة السليمة .

والمعروف لمعنى (عدم بخس أشياء الناس) يشمل عدم بخس تقدمهم فى العمر ، ومكانتهم ، وسبقهم الدعوى ، ودورهم الريادى ، وتقدير كل ما يقدمونه من خير ، وكذلك تشجيعهم على أى عمل أو بذل ، بل أيضاً بمدح ما يسعدهم من صفاتهم ! .

وخطر تجاهل هذا المعلم تربوياً ، أنَّه قد يؤدى إلى إحباط ، وتثبيط بل وإلى جروح نفسية قد تستعصى على العلاج ! .

(فالدعوة لعدم بخس أشياء الناس ، ذات مرتكز أخلاقى وتربوى عظيم ، لأنه (أعم من المكيلات والموزونات) فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع ، تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً ، وتقويمها مادياً ومعنوياً ، وقد تدخل فى ذلك الأعمال والصفات ، لأن كلمة « شيء » تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات ، وبخس الناس أشياءهم - فوق أنه ظلم - يشيع فى نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد ، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير ، وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر ، ولا تُبقى على شيء صالح فى الحياة)[1].

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 12/ 1918 .

● **دور القيادة الواعية :**

وكان لرسولنا - ﷺ - سهماً وافراً فى هذا الباب ، منه الحديث الشريف الذى أوردناه فى المقدمة ، ومن ذلك أيضاً ، عندما قابل مسلموا المدينة - خاصة الأطفال - أولئك العائدين من (غزوة مؤتة) بقيادة سيف الله (خالد) - رضوان الله عليهم - بقولهم : يا فرار ، لم يك رد الرسول - ﷺ - عليهم بقوله : « **بل هم الكُرار** » ، وكذلك إضفاء لقب سيف الله لأول مرة على قائدهم ، مجرد رد اعتبار لهؤلاء العائدين من غزوة الصمود والتحدى أمام جحافل الروم وأشياعهم ، بل تجاوز ذلك ، ليصبح معلماً رفيعاً يعلم اللاحقين من الدعاة ، بوجوب إعادة الثقة ، والاعتراف بمكانة أى صاحب بذل على طريق الدعوة ، حتى وإن بدا على غير ذلك فى نظر البعض ! .

ويبرز هنا دور القيادة الواعية ، التى لا تنساق فى تقديراتها ، وراء الأفكار الطفولية .

● **الأخلاق ... تتوارث ! :**

وتأمل ذلك المعلم التربوى الرفيع ، الذى يؤكد على أن هذا الخلق والسلوك التربوى ، يتوارث من جيل إلى جيل ، وذلك

كما تتوارث الصفات الجسمية والجسدية عن طريق (جينات الكروموسومات) .

وتدبر المسيرة الدعوية والتربوية وهو يحتضن طلحة بن عبيد الله - رضى الله عنهما - فى مراحل الطريق المختلفة .

حيث كانت الخطوة الأولى ، وهى مرحلة الهداية والدعوة ، عندما اختار الصديق - رضي الله عنه - بعد إسلامه قاعدة خماسية ذهبية صلبة تكونت من (عثمان بن عفان) و(الزبير بن العوام) و (عبدالرحمن بن عوف) و(سعد بن أبى وقاص) و (طلحة ابن عبيدالله) - رضوان الله عليهم -[1] .

ثم كانت مرحلة التفقد والرعاية والتعهد بل والتشجيع ، خاصة فى أحلك اللحظات وأدقها ، وتدبر ذلك أثناء محنة «أحد » ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال أبو بكر الصديق : « لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى - ﷺ - فكنت أول من فاء إلى النبى - ﷺ - فرأيت رجلاً يقاتل عنه قلت : كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، فلم ألبث أن أدركنى أبوعبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد

(1) المنهج الحركى للسيرة النبوية : منير الغضبان 22 .

كالطير ، حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى - ﷺ - فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبى - ﷺ - : « **دونكم أخاكم فقد أوجب** » [1] .

ثم كانت مرحلة التاريخ والتقدير ، وذلك فيما رواه أبو داود الطيالسى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة ، وقال فيه أبو بكر - رضى الله عنهما - أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت ... لك الجنان وبوئت المها العينا [2] .

ثم ظلت تلك السلسلة السلوكية الفريدة تتوارث من جيل إلى جيل ، وذلك لما حكى كعب بن مالك - رضي الله عنه - قصة محنته وكيف حفظ الجميل والتقدير ، لطلحة بن عبيدالله - رضي الله عنه - عندما قام ليهنئه بتوبة الله تعالى عليه ولم يقم غيره ، **(فكان كعب لا ينساها لطلحة)**[3] .

وهذا السلوك الراقى لكعب - رضي الله عنه - فى تقدير الناس ، لم يأت من فراغ ، بل لمسة من الحبيب - ﷺ - فورثه عنه ، وذلك عندما حكى قصة إسلامه فقال : « فدخلنا المسجد ، فإذا

(1) المصدر السابق : (378) .
(2) المصدر السابق : (406) .
(3) متفق عليه .

العباس جالس ، ورسول الله - ﷺ - معه جالس ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله - ﷺ - للعباس : « **هل تعرف هذين الرجلين ؟** » ، قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله - ﷺ - : « **الشاعر** » ؟ . قال نعم »[1] .

• لا يسبقنك ... الغربيون !:

وأولى بالدعاة إلى الله ، أن يتدبروا تلك المنارات التربوية ، وأن يحذروا خطر عدم تقدير الناس ، وخطر عدم توارث هذا السلوك الإنساني الرفيع ، بل يقبح بهم أن يسبقهم في التحذير نفر من غير المسلمين ، وتدبر ولا تستغرب ما قاله الأديب العالمي الشهير (شكسبير) ، على لسان (الملك لير) ، في رائعة من روائع الأدب العالمي (ليس أشد إيلاماً من ناب حية رقطاء غير ابن جحود !) ، ولكن . . . كيف بالله يشكر الأبناء ما لم نعودهم نحن الشكر ؟! ، إن الجحود فطر ، مثله مثل الأعشاب الفطرية ، والشكر كالزهرة لا ينبتها إلّا الرّي والسقيا ، فإذا لم نعود أبناءنا إجزال الشكر للآخرين ، فكيف ننتظر منهم أن يشكرونا نحن ؟!) .

بل لا نستعجب - ونحن نعلم أن الحكمة هي ضالتنا أنّى

(1) المسند : ابن حنبل 3/ 461 .

وجدناها فنحن أحق بها - كيف أن العالم الإنساني العالمي المشهور (ديل كارنيجي) في تحفته الإنسانية (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس ؟) ، قد أورد أن هذا السلوك الإنساني - وهو عدم بخس أشياء الناس وإسباغ التقدير المخلص على الشخص الآخر وجعله يشعر بأهميته - كأحد القواعد المهمة لكي تحبب الناس إليك ، حيث قال : (ثمة مبدأ على جانب عظيم من الأهمية في السلوك الإنساني ، لو عملنا به ما وقعنا في المشكلات قط ذلك هو : اجعل الشخص الآخر يحس دائماً بأهميته ، إذ كل رجل تلقاه يكاد يشعر أنه أحسن منك ، في ناحية ما على الأقل ، وليس هناك إلا سبيل واحد يفضي بك إلى قلبه ، ذلك هو أن تشعره - بطريقة مباشرة - أنك تعترف بأهميته ، وأنك تعترف بذلك في إخلاص !)[1] .

بل وقد جعل مبدأ إسباغ الذكر الحسن الذي يقوم على تدعيم الآخر ، من الطرق المهمة التي تملك بها زمام الناس ، دون أن تسيء إليهم أو تستثير عنادهم ، حيث ذكر هذه المقولة على لسان أحد مديري الشركات (في وسع أي إنسان أن ينقاد لك عن طيب خاطر إذا أظهرت له أنك تحترم فيه ولو ضرباً واحداً من المقدرة ، فإذا أردت أن تفيد من شخص في ناحية من

(1) كيف تكسب الأصدقاء : ديل كارنيجي - طبعة دار الندوة الجديدة - بيروت 104 - 121 بتصرف .

النواحى ، فما عليك إلا أن تؤكد له أن هذه الناحية بالذات من نواحى القوة فيه ؟!)[1] .

• اعتلالات ... تربوية !:

بل والعجب العجـاب أننا نجـد (ظاهرة : بخس أشياء الناس) - والتى ينتج عنها الكثير من الخلل - قد شانت بعض سلوكيات ذلك الرهط الذى جعل الحق سبحانه عودة الخيرية لأمتنا على عاتقه ، وهم ورثة الأنبياء ، ألا وهم الدعاة إلى الله ؟! .

والصور اليومية كثيرة ، والآثار الناجمة عديدة ، أقلها الإحباط والتثبيط ، وأخطرها الجروح النفسية ، منها :

1- أن البعض يبخل ببعض كلمات التشجيع على ما قدمه الآخر ، ولو على سبيل المجاملة ، بحجة أن ما قدمه هو واجب عليه ومن بعض ما كلف به ؟! .

وينسى أن الحق سبحانه قد جعل الجنة جزاء لمن قام بواجبه الذى كلف به ، وأدى وظيفته بحق ، ألا وهى العبودية لله وحده

2- أن البعض يُقَيِّم الآخر على أساس آخر عمل قام به ، وينسى ما قام به فى سابق أيامه بل ويتجاهل تاريخه الدعوى .

---

(1) المصدر السابق 232 - 243 بتصرف .

وينسى ذلك السلوك الراقى الذى قام به الحبيب - ﷺ - مع ذلك البعير المسكين .

3- أن البعض يجحد فضل الأعمال المميزة للآخر ، وذلك عن تجاهل ، أو بحجة أن المديح مذموم شرعياً .

وينسى أن الحق سبحانه ، قد جعل موازين ثابتة تفاضل بين الناس على أساس تفاضلهم فى الأعمال ، بل وجعل لأصحاب الأعمال المميزة تقديراً خاصاً ، كأوسمة تزين صدورهم ، بل ويُعرفون بها ، أمثال أصحاب بيعة العقبة ، والبدريون ، وغيرهم كثير .

وكذلك ، لماذا شرع لنا ذلك الذكر المأثور : (وأحسبه كذلك وحسيبه الله ، ولا أزكى على الله أحداً ؟ ؟!) .

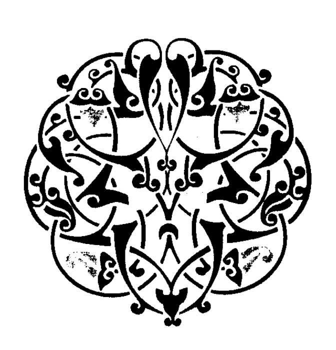
4- أن البعض قد لا يبخس أعمال الآخر فقط ، بل يتعداها - وهذا هو الأخطر - فيبخس الصفات الشخصية الطيبة التى تميزه .

وينسى أن هذا السلوك فوق أنه مرض قد استهجنه (شعيب) -عليه السلام- فهو أيضاً غيبة ، وأكل للحوم ميتة .

5- أن البعض يبخل ببعض لمسات التقدير ، التى لا تكلف شيئاً ، ولو كانت بكلمات هاتفية قليلة ، تدخل السرور على الآخر !؟ .

وينسى وعده - ﷺ - : « **من لقى أخاه المسلم بما يحب الله ليسره بذلك ، سره الله عز وجل يوم القيامة** » (1) .

فكيف نزعم أننا نشارك فى صنع فجر أمة ، وقد أحدثنا خللاً كونياً ، بتجاهلنا لهذه السنة الإلهية ، والعلاج جدُّ بسيط ؟؟؟! .



(1) رواه الطبرانى فى الصغير وإسناده حسن .

(7) ظاهرة كبت الفكر ... وفكر الكبت

نقر الطبيب بأنامله على مكتبه ، بحركة لا شعورية ، وكأنه قاض يريد وقف الضوضاء التى غزت هدوء المكان ، ثم نقر ثانية وهو ينظر إلى محدثه القلق والمتوتر ، وإن كان يخفى توتره بإصلاح رابطة عنقه بين الفينة والأخرى ، أو يحاول النظر إلى ولده ، الذى أنهى حديثه وإن شئت قلت ثورته وهجومه بخلاصة المشكلة المرضية ، كما يراها :

سيدى الطبيب ، أرجو أن تجد لى حلاً مع تلك المصيبة التى ابتليت بها .

حملق فيه الطبيب ، وقال : ترى أى مصيبة تقصد ؟! .

قال الرجل : باختصار ، هذا الولد الذى تخطى سنوات الطفولة ، وهو الآن على أعتاب مرحلة المراهقة ، وبعد سنوات قليلة سيصبح رجلاً مسئولاً ، لم تزل الحروف تائهة على شفتيه ، يتلجلج ، ويتهته ، وتضيع المواضيع من ذهنه ، ولا تتخيل عمق الخجل الذى يصيبنى عندما يصحبنى فى بعض الزيارات ، وتبدو تأتأته أمام الغير ! .

انتهى زميلنا الطبيب النفسانى من هذه المقابلة ، وكشف على الفتى ، وودع المريض ووالده ، بعد حوار ليس بالقصير .

ثم نظر إلىَّ ساهماً ، متعجباً ، وقال فى حسرة : يا إلهى ، إلى متى نترك الجوهر ونعالج القشور ؟ إلى متى نهرب من أفعالنا ونعكسها على غيرنا ؟ تلك يا صديقى فرع من أصل كبير سيطر على عقلياتنا ، أو صورة متكررة لصور كثيرة ، تبين مدى ضحالة تعاملنا مع مشاكلنا الحياتية .

صورة يبدو فيها المظلوم ظالماً ، ويبدو المجنى عليه جانياً ، وتبدو الضحية هى السبب !!! .

المهم لو كان الأمر بيدى ، لعالجت الأب ، عالجت تعامله الشائه مع الأمور حوله ، يا صديقى هذه المصيبة التى يتحدث عنها ويصفها مصيبة ، هو سببها ، أو هى أثر من آثار سلوكه المعْوَج فى التربية ، وهذه المصيبة أو التهتهة التى يعانى منها الفتى ماَ هى إلا نتيجة لسلوك الأب ، ومدى الضغط النفسى ، والكبت الذى يتعرض له الابن ، ولكن ! . . . لن ألوم الأب لأن ما يفعله هو جزء من المشكلة الكبرى ، أو الظاهرة التربوية العامة ، وهى معالجة آثار المعضلة ، وترك جذورها ومسبباتها .

تلك هى القضية ، أو المصيبة التى أصابت البشر أمماً وأفراداً ، فى نظرى !!! .

واصل زميلى حديثه بعد أن هدأت لهجته ، وقال : تدبر مشكلة هذا الفتى ، من زاوية مسبباتها ، فهى :

1- إما فسيولوجية ، أى تعود إلى أصل وراثى ، وكما ترى فهذا مستبعد فى مشكلتنا ، فالأب ما شاء الله لبق ، وذو شخصية .

2- أو تعود إلى آمال الوالدين : إن الآمال والتوقعات غير الواقعية من قبل الوالدين تؤدى إلى زيادة الضغط على أطفالهم مما يزيد من توترهم ، إن الكثير من الكبار لا يعرفون قوانين تطور ونمو الأطفال ويجهلون متى وكيف يستطيع الطفل التحدث بطلاقة مما يجعلهم يلومونهم وينتقدونهم ، فيثيرون خوفهم وقلقهم فيتلعثمون ، وفى المقابل فإن كثرة التدليل ، وعدم توقع نجاح وإنجاز الأبناء ، وعدم تشجيعهم ، يقلل من اعتمادهم على أنفسهم ، فيؤدى إلى عجزهم عن التعبير عن أنفسهم .

3- أو تعود إلى التوتر : ففى بعض المواقف يكون الخوف والقلق من أسباب التوتر الكلامى والتعبيرى .

4- أو الصراع : فالضغط الاجتماعى وزيادة الرقابة الأسرية ، تؤدى إلى كبت الرغبة فى التعبير عن المشاعر ، وبالتالى إلى عدم القدرة أو العجز التعبيرى[1] .

فما رأيك ؟؟؟! ، ترى من هم الأحق بالمعالجة ؟؟؟! .

(1) النمو الانفعالى عند الأطفال : مفيد وزيدان حواشين ـ طبعة دار الفكر ـ عمان 172- 173بتصرف .

وَدَّعت زميلى ، وقد أخذت تلك القضية من كل تفكيرى ، وتعجبت لتكرارها واطرادها فى كل مجالات هذا الوجود الكبير .

• فى المجال الكونى :

ففى الطريق التفت إلى السماء ، فوجدت القمر يبدو هلالاً صغيراً ، لا يكاد يرى .

ولأول مرة أشعر نحوه بالعطف !؟ .

وتساءلت لمَ لا يلومونه ، على عدم استدارته ، وعلى عدم تلألؤه ، وعلى تَقصيره فى أن يكون دائماً على صورة البدر ؟! .

أليست هذه أمور خارجة عن إرادته ؟! . أليست هناك عوامل كونية ، مثل تدخل الأرض بينه وبين الشمس ، فحجبت الشمس عنه ، فأثر ذلك على صورته ، وعلى وظيفته ؟؟؟! .

ومن المسلمات بل ومن الثوابت العقيدية ، أن كل حركة فى هذا الوجود بأمره ومشيئته سبحانه ، ولكن لننظر إلى القضية من جانب أو زاوية البحث عن السبب ، وعدم محاكمة الضحية ، التى ينعكس أثر العوامل الخارجية على صورتها ووظيفتها .

• فى المجال النباتى :

على جانبى الطريق ، وعلى غصن شجرة قريب ، التقطت

من بين الأوراق الخضراء ، ورقة بدت مبرقعة بلون آخر شائه يجمع بين الأبيض والصفرة الشاحبة .

ولأول مرة أشعر بأنها قريبة من أفكارى ، وكأنها تود أن تلقى برأيها فى القضية ، فسررت لهذا الأنس والود الذى ربط بيننا ! .

ولأول مرة كذلك أستشعر وحدة الخلق فى هذا الوجود .

وتساءلت أيضاً ، لِمَ لا نلوم تلك الوريقة على منظرها الغريب ؟! .

أليست هناك عوامل خارجية ، أثرت على عملية التمثيل الضوئى ، ووظيفة المادة الخضراء ، وهى (الكلوروفيل) ، فكانت تلك الصورة اللونية الشائهة الشاحبة ، وبالتالى نتج عن ذلك التدخل الخارجى خللاً وظيفياً أيضاً ؟ .

إذن هل من المعقول أن نلوم تلك الوريقة المسكينة الضحية على فساد لونها ؟! .

هل من المعقول أن نحاكمها على تقصيرها فى وظيفتها ونترك تلك العوامل الخارجية ؟! .

أليس ذلك يذكرنا بقضية ذلك الفتى المتهته المسكين ، وأيضاً بذاك الهلال ؟!!! .

• فى المجال البشرى :

الآن نستطيع أن نضع أيدينا على مفتاح القضية ، وهى أثر تدخل العوامل الخارجية ، - بصورها المختلفة - على عملية السير الطبيعى لحركة ووظيفة وسلوك الخلائق ، وكيف ينتج عن هذا التدخل ظواهر اعتلالية ، ترتبط بالمخلوق المتأثر ! ، وفى نفس الوقت تنسينا دور المسببات لذلك الخلل ؟! ، وبالتالى يضيع منا أصل القضية ! .

وحتى لا يضيع منا خيط البحث ، نركز أنفسنا على نوعية خاصة من الخلائق ، وهم البشر عموماً . . . . .

ولما كان من أميز وأخص وظائف البشر ، هى وظيفة النطق والفكر ، وإنها من النعم العظيمة والآلاء الباهرة التى امتن بها سبحانه على هذا الإنسان ، فبعد نعمة تعليم القرآن ، ونعمة الخلق ، تأتى نعمة البيان ، وهى نعمة النطق والفكر ، أو تعليم الخير والشر : ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1] .

لهذا فنحن - بعونه تعالى وتوفيقه وتيسيره - سنختزل مجال البحث ، ونركز تحت بؤرة الدراسة ، قضية أثر العوامل الخارجية

(1) الرحمن 1-4 .

على الجانب الفكرى والإبداعى ؟ ، وكيف ينشأ عن ذلك التدخل الخارجى ، تهتهة من نوع آخر ، ليست تهتهة كلامية فقط بل تهتهة فكرية ، وتهتهة تعبيرية ، وتهتهة حركية ، وتهتهة تنظيمية ، وتهتهة تربوية !!! .

• أثر المناخ الاجتماعى على السلوك :

وفى دراسة رائعة قام بها (رونالد لبيت) و(رالف هوايت) (1943م) ، حول تأثير أنواع القيادة والمناخ الاجتماعى على سلوك الفرد والجماعة .

وكان هدف التجربة دراسة سلوك الفرد وسلوك الجماعة ، بمناخات اجتماعية ثلاثة ، ودراسة رد الفعل الحادث عن الانتقال من أحد هذه المناخات إلى مناخ مغاير .

وكانت عينة البحث ، تتكون من تلاميذ فى فرق دراسية واحدة ، سنهم عشر سنوات ، قسموا إلى أربعة نوادٍ ، وبكل نادٍ خمسة أطفال ، ولكل نادٍ اسم معين .

وكان أهم ما ورد فى نتيجة الدراسة ، التى تمت فى مناخات اجتماعية ثلاثة هى :

(1) المناخ الديموقراطى : أى تحت قيادة ديموقراطية أو إقناعية .

فكان كل فرد يشعر بأهمية مساهمته الإيجابية ،وأنهم أكثر تحمساً ، وأكثر ترابطاً وتماسكاً ، والشعور بالـ (نحن) قوى و الروح المعنوية مرتفعة ، وإذا غاب القائد كان العمل والنشاط هو نفسه كما كان فى حضوره .

وكان الأهم فى النتيجة كلها ، هو أن السلوك الاجتماعى كان يميزه الشعور بالثقة المتبادلة ، والود والتجاوب ، والاستقرار والراحة النفسية ، وكان الإنتاج حسب الخطة الموضوعة ، وكان هناك شعوراً دفاقاً بالاعتزاز بما أنجزوا .

(2) المناخ الأوتوقراطى : أى تحت قيادة أوتوقراطية أو استبدادية أو إرغامية أو تسلطية أو دكتاتورية .

كان الأفراد لا يعرفون أهداف النشاط ، بل يحدد لهم خطوة خطوة ، مع عدم معرفة الخطوات التالية ، وليست لهم حرية اختيار زملاء العمل بل يفرض عليهم ، وإذا غاب القائد حدثت أزمة شديدة وتوقف للنشاط ، وكاد أن ينحل عقد المجموعة .

ويزداد اعتمادهم على القائد ، ويسود جو من انعدام الثقة المتبادلة ، وتسود روح التملق والنفاق والتزلف للقائد مع كرهه والسعى لجذب انتباهه ، ويسود شعور بالإحباط والصد والحرمان وعدم الاستقرار وحدَّة الطبع وانخفاض الروح

المعنوية ، وقد يتم الإنجاز ولكن بلا شعور بالاعتزاز والفخر .

(3) المناخ الفوضوى : أى تحت قيادة فوضوية تؤمن بالحرية المطلقة التى بلا ضابط .

كانت النتائج وسط بين المناخين السابقين ، مع بعض الاختلافات ، وبروز روح العفوية ، المرتبطة بظروف التفاعل الاجتماعى [1].

• أثر الحالة السياسية على الحالة الفكرية :

وبعد تدبر نتائج هذه الدراسة ، حول تأثير المناخ الاجتماعى على السلوك الفكرى للأمم والأفراد .

نجدها تتفق مع رأى العلامة (ابن خلدون) - رحمه الله - حول أثر أو دور الحالة السياسية للمجتمعات على الحالة الفكرية للشعوب أو الأمم والأفراد ، وذلك تحت عنوان : (معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم) .

فكان مما قاله :

(فمن الغالب أن يكون الإنسانُ فى مَلَكَة غيره ولابد .

فإن كانت المَلكة رفيقة عادلة لا يُعانى منها حُكْمٌ ولا مَنْعٌ وصَدٌّ ، كانَ الناسُ من تحت يدها مُدلينَ بما فى أنفسهم من شجاعة

(1) علم النفس الاجتماعى : د. حامد عبدالسلام زهران - طبعة عالم الكتب 309 - 318 بتصرف .

أو جبن واثقينَ بعدم الوازع حتى صار لهم الإذلال جبلة لا يعرفون سواها .

وأما إذا كانت الملكة وأحكامُها بالقهر والسطوة والإخافة ، فتكسرُ حينئذ من سَوَرة بأسهم وتُذهبُ المنْعَة عنهم لِمَا يكونُ مَن التكاسل فى النفوس المضطَهدة) [1]َ.

وتدبر مغزى ربطه - رحمه الله - بين رفق وعدل السلطة، وبين نفوس الأمة المتطبعة والمنجبلة على الحرية الفكرية والعكس بالعكس .

• كبت الفكر ... يورث فكر الكبت :

ولو تدبرنا ما قصه علينا القرآن الكريم حول سلوك بنى إسرائيل الانحرافى والإفسادى ، فإن كانت تلك جبلتهم الشاذة وطبيعتهم الملعونة .

فلو وقفنا عند هذه القناعة ، وتركنا البعد التربوى للقصص القرآنى ، فلن نستفيد من قصصهم وتجربتهم .

ولكن عندما نتدبر هذا السلوك من باب الدراسة التربوية والخروج بالمغزى والعبرة من قصصهم فى آيات الله جل وعلا .

فإنه يصيبنا الحيرة والدهشة والاستنكار لقابليتهم الغريبة للانحراف والاعوجاج .

(1) مقدمة ابن خلدون : عبدالرحمن بن خلدون .

ولنتأمل أبرز مثال على شذوذهم ، وهو ما حدث منهم ، عندما جاوزوا البحر مع موسى - عليه السلام - حيث كانت مصيبتهم وفسادهم أعظم : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[1] .

عند هذه الحادثة بدأت الجولة الثانية فى قصة موسى - عليه السلام - وهى قصته مع قوم بنى إسرائيل ، حيث كانت أصعب وأقسى من الجولة الأولى وهى قصته مع فرعون وملأه .

بدأت مرحلة التعامل مع النتيجة التى أخرجت هذا الفساد والانحراف .

انتهت مرحلة التعامل مع فرعون وملأه ، وهى مرحلة التعامل مع الأسباب المناخية الاجتماعية التى أفرزت هذا السلوك الاجتماعى ، تلك المرحلة التى ظللتها حالة من (الكبت الفكرى) .

---

(1) الأعراف (138 - 141) .

وبدأت مرحلة قاسية ، وهى التعامل مع قوم بنى إسرائيل ، أو مرحلة علاج ذلك السلوك الاجتماعى الشائه ، والتعامل مع نوعية معينة من الفكر المنحرف ، وهو (فكر الكبت) وهو مثال متكرر فى كل عصر وكل مصر .

وهو العبرة والدرس العظيم ، الذى يجب أن تعيه كل جماعة تريد أن تحمل إلى البشرية منهج رب العالمين ، فى أى جولة تدافعية حضارية جديدة .

وهو تلك السنة الإلهية الاجتماعية ، التى توضح كيف أن المناخ الاجتماعى لأى أمة ، إذا مر بمرحلة قهرية من الكبت الفكرى ، تنتج عن ذلك حالة من الاعتلال فى السلوك الفكرى تسمى (فكر الكبت) .

وفقه هذه السنة الإلهية الاجتماعية ، وهى (ظاهرة كبت الفكر وفكر الكبت) ، وقوة العلاقة بينهما يعتبر مفتاح التعامل مع الأمم والأفراد .

لقد كانت الحلقة أو الجولة الثانية ، لموسى - عليه السلام - مرحلة قاسية فهى (مع قومه بنى إسرائيل ، بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ، وأغرق فرعون وملأه ، ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون .- إن موسى - عليه السلام - لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملأه ، فقد انتهت المعركة مع الطاغوت ، ولكنه يواجه

معركة أخرى - لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً - إنه يواجه المعركة مع النفس البشرية ! ، يواجهها مع رواسب الجاهلية فى هذه النفس ويواجهها مع رواسب الذل الذى أفسد طبيعة بنى إسرائيل ، وملأها بالالتواء من ناحية ، وبالقسوة من ناحية ، وبالجبن من ناحية ، وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية ، وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً .

فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً ، ومن الحياة فى ظل الإرهاب والخوف والتخفى والالتواء لتفادى الأخطار والعذاب ، والحركة فى الظلام ، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء .

ولقد عاش بنو إسرائيل فى هذا العذاب طويلاً ، عاشوا فى ظل الإرهاب ، وفسدت نفوسهم ، وفسدت طبيعتهم ، والتوت فطرتهم ، وانحرفت تصوراتهم ، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر .

وهما جانبان متلازمان فى النفس البشرية حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان .

لقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ينظر بنور الله ، فيرى حقيقـة تركيـب النفس البشرية وطبيعتها ، وهو يقول لعماله على الأمصار موصياً لهم بالناس : « ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم » .

ولقد ضربت أبشار بنى إسرائيل فى طاغوت الفرعونية حتى ذلوا ، بل كان ضرب الأبشار هو أخف ما يتعرضون له من الأذى فى فترات الرخاء ! ، ولقد ضربت أبشار المصريين كذلك حتى ذلوا هم الآخرون واستخفهم فرعون ! .

وعملية استصلاح نفوس بنى إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعونى هى التى سيواجهها موسى - عليه السلام - فى هذه الحلقة ، مع هذه النفوس ، وهى تواجه الحرية بكل رواسب الذل .

ومتاعب موسى - عليه السلام - فى هذه المحاولة الضخمة التى يحاولها وهى متاعب كل صاحب دعوة ، يواجه نفوساً طال عليها الأمد ، وهى تستمرىء حياة الذل تحت قهر الطاغوت .

إن جهد صاحب الدعوة - فى مثل هذه الحال - لهو جهد مضاعف ، ومن ثم يجب أن يكون صبره مُضاعفاً كذلك .

ولعل هذا جانب من حكمة الله عز وجل فى عرض قصة بنى إسرائيل على الأمة المسلمة .

ولعل فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله فى كل جيل[1] .

• أثر المناخ الاجتماعى على بذل الفرد :

ولحكمة عظيمة ، كان القرآن الكريم يعرض القضية من

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 9 / 1364 - 1365 بتصرف .

منظور آخر ، وهو حاجة الفرد للحرية فى صورها المختلفة ، حتى يكون فعالاً .

أما عن ضرورة الحرية للبذل والعطاء نتدبر هذا المثل المعبر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

لقد بين لنا سبحانه ، اختلاف العطاء والبذل المادى والقدرة عليه ، عند كلتا النوعيتين :

النوعية الأولى من الأفراد ، يبدو الفرد فيها لا يملك ، أو يملك ولكنه لا يستطيع التصرف فيما يملكه .

وهى النوعية السلبية ، أو المرضيَة ، حيث يبدو فيها الفرد كالعبد المملوك .

وهى من نوعية التهتهة الحركية ، والتنظيمية بل والتربوية أيضاً !! . وتدبر كيف كان الرسول - ﷺ - يستعيذُ من صورتى عدم القدرة على العطاء ، صورة عدم التملك ، وصورة التملك مع عدم القدرة فى التصرف : « **اللهم إنى أعوذ بك من العجز ، والكسل** » (2) .

---

(1) النحل : (75) .

(2) رواه البخارى : الدعوات - باب التعوذ من فتنة المحيا والممات 6367 ومسلم : الذكر والدعاء - باب التعوذ من العجز والكسل 2706 .

النوعية الثانية ، يكون فيها الفرد عنده ما يملكه وعنده القدرة فى التصرف فيما يملكه .

وهى النوعية الإيجابية الفعالة ، أو السوية ، حيث يبدو فيها الفرد حراً .

وتدبر كيف أن العطاء المادى اختلف ، باختلاف حال الرجلين .

إذن لا يستويان ، لأن المناخ الاجتماعى لكليهما مختلف ، وبالتالى كان السلوك مختلفاً أيضاً .

• أثر المناخ الاجتماعى على فكر الفرد :

أما الصورة الثانية للحرية ، فهى حرية الفكر والتوجيه .

فإن المثل الآخر يبين لنا ، أن الحرية من ضروريات الدعوة والتوجيه والحركة بالفكرة :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

ويبين لنا الحق سبحانه ، اختلاف العطاء المعنوى والبذل

---

(1) النحل : (76) .

الفكرى والدعوى ، عند كلتا النوعيتين :

النوعية الأولى : نوعية من لا يملك حرية التعبير ، أو حرية التوجيه .

فهو أبكم وكَلٌّ أو عالة على غيره ، حتى وإن وُجه فإن عطاءه يكون معْوَجاً ، وبذله يكون منقوصاً لا خير فيه .

وهى نوعية مرضية غريبة ، تتدرج نسبة خطورتها من مجرد التهتهة الفكرية ، والدعوية ، إلى أخطر صورة وهى البكم التعبيرى والفكرى والدعوى !؟ .

النوعية الثانية : نوعية من يملك حرية التعبير ، وحرية التوجيه .

وتدبر ربط الآية بين الحرية فى التعبير والفكر والتوجيه ، وبين الهداية والتزام صراط الله المستقيم .

وكأن الحرية من صميم المنهج ، ولا استقامة على المنهج ، عند افتقار الحرية والتعبير والتصرف ، والحركة بما تتطلبه الفكرة .

إذن لا يستويان ، لأن المناخ الاجتماعى لكليهما مختلف وبالتالى كان سلوكهما الاجتماعى مختلف كذلك .

• أثر المناخ الاجتماعى على الفكرة :

وحول أهمية وجود المناخ الاجتماعى الذى يسوده جو من الحرية الفكرية ، وكيف أنها من ضروريات انتشار الفكرة والدعوة .

فإن القرآن الكريم قد قص علينا مثالين مشهورين ، عن هذه الحالة ، عن دولتين كافرتين ، اختلفت فيهما النتيجة ، لاختلاف طبيعة نظام الدولة ، وطبيعة الحاكم .

الحالة الأولى : تبدو فى قصة مسيرة الدعوة داخل دولة فرعون ، التى من طبيعة نظامها السياسى القهر والاستبداد ، أو ما تحدثنا عنه آنفاً هو دولة يسودها مناخ اجتماعى (أوتوقراطى) استبدادى إرغامى تسلطى و(ديكتاتورى) .

ومعذرة ، لاستخدام المصطلحات الغربية ، مثل الديموقراطية ، والديكتاتورية ، والأوتوقراطية ، ويكفينا ما تعبر عنه .

ونجمل أبرز وأهم سمات الحالة السياسية لهذه الأمة ، فى نقاط معدودة مبسطة .

فحاكمها ، مستبد وظالم يرى نفسه فوق النصيحة : ﴿ قال يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ

الأَنْهارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[1].

ويرى رأيه هو الرأى ، ويحمل المذهب الاستئصالى للآخر ، ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[2].

بل والعياذ بالله نراه قد تمادى فى تكبره فتجرأ - وذلك لكفره ولغبية أو لتغييب المعارضة - حتى بلغ به الشطط كل مبلغ ، فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[3] .

ونظراً لقناعته وتبنيه للمذهب الاستقصائى للآخر ، فإنه لا يحترم الآخر ، ولا يقر بالتعددية ، وتصوره للآخر تصور شائه : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[4] .

والشعب نظراً لحالته الأخلاقية المتدنية ، فإنه مُستخفٌ به ، ولا يحمل أهلية الاحترام من قيادته ، ورغم هذا فإنه يطيعها قهراً وإرغاماً : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾[5].

(1) الزخرف : (51) .
(2) غافر : (29) .
(3) النازعات : (24) .
(4) الزخرف : (52 ، 53) .
(5) الزخرف : (54) .

وكانت النتيجة ، لمسيرة الحركة الدعوية فى هذا المناخ المريض الفاسد ، أن توقفت الدعوة وحوربت ، وجُفِّفت منابعها ، وطورد الداعية .

وكانت المحصلة النهائية ، هى تحقق سنته سبحانه الإلهية ، وهى النجاة للمؤمنين ، وهلاك الظالمين سواء الحاكم والمحكومين فغرق فرعون وملؤه .

وكان التعقيب القرآنى حول هذه السنة الإلهية ، التى تنتظر كل مفسد : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ؟! ﴾ (1) .

• علاقة الحرية السياسية بانتشار الفكرة :

والحالة الأخرى : تبدو فى قصة الدعوة والداعية داخل دولة كافرة أيضاً ، ولكن من طبيعة نظامها الحرية والشورى وهى حالة تمثل مسيرة الفكرة ، فى مناخ اجتماعى حر ، وذو توجهات (ديموقراطية) إقناعية . ونجمل أهم وأبرز سمات الحالة السياسية لهذه الأمة ، فى نقاط بسيطة :

فحاكمتها تحترم الآخر ، وتؤمن بمبدأ المشاركة السياسية فى اتخاذ القرار ، وذات اتجاه إقناعى يلتزم بمبدأ الشورى :

---

(1) الأعراف : (103) .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (1) .

ولكن لها تصور تعميمي حول بعض القضايا : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (2) .

وتتمتع بالحكمة والفراسة القيادية ، فى جوانب كثيرة ، منها نظرتها إلى قوة المال ، وكيف أنه محك لاختبار النوايا ، لأن قبول الرشوة مقياس لاختبار النفوس : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (3) .

ومن حكمتها أيضاً ، أنها عندما رأت العرش ، عند سليمان - عليه السلام - لم تتلجلج ولم تتلعثم ، أمام هول المفاجأة التى فاجأها بها ، لما قيل لها : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾؟!(4) .

فامتصت الصدمة المذهلة ، وقالت وهى متماسكة : ﴿كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ !!!(5) .

(1) النمل : (32) .
(2) النمل : (34) .
(3) النمل : (35) .
(4) و (5) النمل : (42) .

والشعب رغم قوته ، ورغم الحرية السياسية والفكرية التى يتمتع بها ، فإنه - وقد يكون لكفره - يقدس الحاكم ، ويخول إليه حرية التفاوض ، والبت فى كل الأمور خاصة العلاقات الخارجية : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾(1) .

وكان من طبيعة الأخذ والرد والحوار ، داخل مؤسسات الدولة ، وفى التشاور حول الأمر الذى يحمله إليهم الداعية ، أن هذه المساحة الرحبة من الحرية أعطت الفرصة لاختبار صدق نوايا الداعية ، الذى ظهر استعلاؤه ، وقال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾(2) .

فكان من أثر ذلك الجو المفتوح فى الحوار داخلياً بين الحاكم والمحكوم من ناحية ، وخارجياً بين الدولة ممثلة فى حاكمتها والمخولة من قبل شعبها بالتفاوض ، والداعية من ناحية أخرى ، أن أثمر هذا الجو الصحى - وإن كان كافراً - خيراً للمجتمع سواء الحاكم والمحكومين .

وكانت النتيجة ، والمحصلة النهائية ، هى قبول الفكرة ، والنجاة فى الدنيا والآخرة ﴿ قالت : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ

(1) النمل : (33) .
(2) النمل : (36) .

مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] .

• وفى المجال الدعوى والتربوى :

ونأتى إلى المجال الدعوى والتربوى ، وهو بيت القصد .

حيث نجد أن (ظاهرة كبت الفكر وفكر الكبت) ، ممكن أن توجد ، داخل مؤسسة ، طالما وجدت الأسباب والعوامل المهيئة .

وذلك على اعتبار أنها سنة إلهية اجتماعية مطردة ، وأن البشر هم البشر حيثما كانوا .

وهذه الظاهرة ، داخل هذا المجال ، يكون لها أسباب ومظاهر .

ومن خلال النظرة الكلية لهذه السنة الإلهية الاجتماعية ، على أساس أنها سنة إلهية تتميز بالثبات والاطراد ، فيمكننا البحث عن مرتكزات عامة لتلافيها أو لعلاجها .

• (أ) أما من حيث الأسباب :

فهى لا تختلف كثيراً عما ذكرناه من عوامل أثرت على ذلك الفتى المعتل ، ويمكنا أن نضعها على قسمين رئيسيين :

---

(1) النمل : (44) .

أولاً : عوامل داخلية ، وهى العوامل الفسيولوجية : أى التى تعود إلى طبيعة وشخصية الفرد نفسه .

ثانياً : عوامل خارجية ، يجمعها حالة مناخية من الكبت الفكرى ، وهى :

1- عوامل تعود إلى توجهات المربين : من حيث عدم واقعية التعامل مع الفرد ، إما إفراطاً أو تفريطاً .

2- عوامل تعود إلى التوتر المناخى الاجتماعى السائد وأثره على الفرد .

3- عوامل تعود إلى الصراع والضغط النفسى والرقابى على الفرد من داخل مؤسسته أو من خارجها من المجتمع المحيط .

وبعيداً عن العامل الشخصى أو الفسيولوجى ، فإن المحصلة العامة للأسباب إجمالاً ، هى التى تعود إلى طبيعة المناخ الاجتماعى داخل أى مجال ، وارتباطه بالسلوك الاجتماعى للأفراد المنتسبين له .

وخلاصة ذلك أن السلوك يكون أثراً ونتيجة للمناخ والتوجه السائد وقد تتضح القضية أكثر من خلال الحديث عن العلاج .

• (ب) أما عن المظاهر :

فهى صور متعددة ،منوعة للسلوك الاجتماعى للأفراد

داخل المؤسسة ، والذى يترجم الواقع العملى للفكر المعْوَج أى فكر الكبت .

وفكر الكبت هذا ما هو إلا محصلة نهائية أو إفراز طبيعى لحالة أو مرحلة الكبت الفكرى ، التى قد تسود المناخ الاجتماعى للمؤسسة .

ونجد أن هذه الظاهرة ، تبرز فى نسب مختلفة من السلوك ، فتتدرج من مجرد التهتهة ، إلى أن تبلغ الشدة ، فى حالات متقدمة من البكم الفكرى ، والتعبيرى ، والدعوى ، والحركى ، والتنظيمى ، والتربوى .

1- أما عن التهتهة والبكم الفكرى : وهى حالة من عدم القدرة أو العجز ، حيث يبدو فيها الفرد فى حالة من عدم الإدراك للفكرة أو الوسائل والأهداف التى تقوم عليها مؤسسته .

وتكون الشدة عندما يصل إلى درجة البكم الفكرى .

2- التهتهة والبكم التعبيرى : وهى حالة يبدو فيها الفرد عاجزاً نسبياً أو كلياً عن التعبير عن أفكاره التى يدركها .

وتدبر ما ذكرناه من المثال القرآنى ، حول الأبكم الكَلّ ، العـاجز ، وكيف لا يستوى مع الرجل الذى على صراط مستقيم وهو الذى يستطيع التعبير والحركة بفكرته فيأمر بالعدل .

3- التهتهة والبكم الدعوى : وهى نوعية يبدو فيها الفرد مدركاً للفكرة والوسائل والأهداف ، وقادراً على التعبير ، ولكنه إما فى حالة من التهتهة الدعوية ، حيث يبدو موسمياً فى نشاطه ، ودعوته إلى ما يحمله من أفكار ، وإما فى حالة من البكم الدعوى ، فيكون صائماً تماماً عن الدعوة .

4- التهتهة والبكم الحركى : وهى نوعية المدرك للفكرة ، القادر على التعبير عنها والداعى لها بنشاط ، ولكنه إما فى حالة من التهتهة الحركية ، أى : لا يحمل الذاتية والمبادرة والقدرة على التجديد فى وسائله ، وإما يكون فى حالة من البكم الحركى فلا يتحرك إلا إذا حُركَ ولا ينشط إلا إذا نُشطَ .

وهى حالة من الإفراط فى فهم معانى الجِندية ، وتطبيقها .

5- التهتهة والبكم التنظيمى : وهى حالة ذلك الفاهم المعبر الداعى النشط ، ولكنه إما على حالة من التهتهة التنظيمية ، فيميل إلى الفردية وعدم التنسيق مع غيره من الأفراد ، وإما على حالة من البكم التنظيمى ، فيكون كثير الانتقاد لغيره ، مع العجب بأعماله ، وهى درجة نسبية من التمرد المقنع ، التى يفتقد الفرد فيها فقه معانى الحركة الجماعية ، والعمل المؤسسى ، وأولويات المرحلة وفقه الموازانات .

6- التهتهة والبكم التربوى : وهى نوعية ذلك الفاهم

والمدرك لفكرته ، القادر على التعبير ، النشط فى حركته ، المنضبط مع حركة المجموع ، ولكنه على درجة من الدعة والسكون الفكرى والدعوى ، فيظل دوماً أسيراً لمرحلة فكرية معينة ، ولا يؤمن بالمرحلية الفكرية والتجديد التعبيرى ، فإذا تركته وعدت إليه بعد سنوات تجده يراوح عند نفس المستوى السابق ، ويفتقد إلى القابلية للتطور والنماء .

وهناك صورة أخرى لهذه التهتهة التربوية ، تجد فيها الفرد يفتقد إلى التوازن والاعتدال ، أو الوسطية فى جوانب التربية المختلفة .

• (ج) أما عن العلاج :

فخلاصته أن نضع نصب أعيننا الأسباب المؤدية إلى تلك الحالة المرضية ، ونحاول تلافيها ، خاصة الاهتمام بأثر المناخ الاجتماعى ، وتوجهات القائمين على العمل .

ولو قسمنا العلاج إلى قسمين رئيسيين ، على اعتبار الأسباب فنجده :

أولاً : علاج الأسباب الداخلية الفسيولوجية : وهذا يرتبط بمراعاة شخصية الفرد ، وطبيعة تكوينه .

1- فى البداية يكون بحسن الاختيار والاصطفاء للأفراد .

2- ثم بحسن التوظيف الجيد للفرد ، وذلك بمراعاة

قدرات وخصـــائص وشـــخصية كل فـــــرد .

فإن لكل مرحلة أفرادها ، فإذا كانت بعض الأمور تتطلب الرواحل ، فإن غيرها لا تتطلب إلا أنصاف الرواحل .

وأن لكل مهمة رجالها ، بحيث يشعر كل فرد أنه على ثغرة لا يحرسها غيره ، وواجبه أن يهتم بما أوكل إليه ، فذلك من شأنه ألا يشعر الفرد ذو القدرات المتواضعة بالتقصير ، ولا الفرد البارز بالعُجب .

قال رجل لعبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - : أتيتك فى حاجة صغيرة ، قال : « فاطلب لها رجلاً صغيراً » [1].

ثانياً : علاج العوامل المناخية الاجتماعية السائدة : وهو القسم المهم للوقاية من بروز تلك الظاهرة الاعتلالية ، وذلك من أجل إيجاد ذلك المناخ الاجتماعى الصحى المنشود ، الذى ألمحنا إليه فى الدراسة التى أثبتت أن المناخ الحر الإقناعى ، هو من أفضل الأجواء للبذل الجماعى ، وكيف أنه ينتج سلوكاً انفعالياً سوياً ، ويفرز سلوكاً اجتماعياً إيجابياً منشوداً .

كما أنه هو المناخ المبارك الذى يفجر طاقات الفرد ، مادياً ومعنوياً ، وذلك كما نفهمه من مغزى ذكر المثلين القرآنيين عن

---

(1) بهجة المجالس وأنس المجالس 1 / 321 .

الأبكم والآمر بالعدل ، ثم عن العبد المملوك والرجل الحر .

وهو المناخ المبارك الذى يعود بالخير على الفكرة ، وعلى الأمة ، سواء الحاكم والمحكومين ، كما نفهمه من مغزى ذكر حالة قبول الفكرة ونجاة الأمة الممثلة بمملكة سبأ ، مع المقارنة بما حدث مع فرعون وملئه .

وسنكتفى بذكر أبرز السمات المهمة ، المنشودة ، والتى من شأنها أن تفرز مناخاً اجتماعياً صحياً ، فمنها :

1- **الفقه الجيد للفكرة ولطبيعة الطريق** : وهى سمة قد يُبنى عليها كل السمات الأخرى ، وكذلك قد ينتج عن عدم الأخذ بها كل أنواع الخلل .

وهذه تحتاج إلى المربى الذى يدرك أهمية وضوح الفكرة ، وتدبر تعليق الرسول ـ ﷺ – على أسئلة واستفسارات وفد (بنى شيبان) المكون من (مغروق بن عامر) و(هانىء بن قبيصة) و(مثنى بن حارثة) و(النعمان بن شريك) وذلك فى نهاية جلسة المفاوضات : **« ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، فإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه »** [1] .

وكذلك الدعوة لن ينصرها إلا من فقهها وأحاطها من جميع

---

(1) مختصر السيرة: ابن عبدالوهاب 134 نقلاً عن : المنهج الحركى للسيرة النبوية : منير الغضبان 1 / 143 .

جوانبها .

ويدرك أيضاً أهمية دور الحوار والمناقشة فى تطور الفكرة فى ذهن الفرد ، وتأمل كيف كان (عكـرمة) تلميـذ ابـن عبـاس - رضي الله عنه - يحرك تلاميذه ويستثيرهم : (ما لكم لا تسألونى . . . أأفلستم ؟؟؟؟!) .

والحوار هو الأسلوب الذى يؤدى إلى تطور الفرد والمربى معاً ، لأن القائد ينمو إذا كان يتحرك فى مجموعة وينتهى إذا تخلى عنه من معه ، (قال الإمام الشافعى - رحمه الله - : كان الليث أفقه من مالك ، إلا أنه ضيعه أصحابه)[1] .

2- **الحرية** : وهى سمة رئيسة يمكن أن نستشعرها من خلال تدبر تلك التجربة التغييرية التى قادها ذلك الصحب المؤمن ، من أصحاب الكهف ، وكيف قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[2] لقد شاء سبحانه ، أن يستيقظ هذا الصحب الطيب من الرقدة الطويلة ، وكان أول ما حدث هو التساؤلات

(1) محسن المحاضرة السيوطى 301/1 نقلاً عن القيادة : جاسم المهلهل 58 .
(2) الكهف (19 - 20) .

المتبادلة ، حول المدة التى انقضت وهم نائمون ، وكان الاتفاق الجماعى على ترك سر ذلك لعلم الله سبحانه ، والانشغال بما يفيد وبما ينبنى عليه عمل فهم جائعون ويحتاجون للطعام .

وأهم ما يتبادر إلى خلد القارئ المتدبر لحال هؤلاء الفتية المؤمنون ، عند استيقاظهم ، هو جو التساؤل وكأنه هو المقصود من عملية بعثهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ ، ففى جو من الحرية وأخذ الرأى ومن التشاور ، قد تم هذا الاتفاق الجماعى على ما يجب عمله - كما اتفقوا مسبقاً على الاعتزال والإيواء إلى الكهف - عند مواجهة المجتمع ، فقد اتفقوا على الانشغال بما يفيد ، وبما ينبنى عليه من فعل إيجابى ، وترك علم الغيب لله عز وجل ، وهى القضية المباشرة والمقصودة من سرد القصة وهو ترك علم الغيب لله ، لأنهم بذلك الجو الصحى ، إذا اتفقوا على أمر معين فيما بينهم كان هذا أدعى أن يؤمن به غيرهم ، وإلا فكيف سيواجهون الواقع بما لم يقتنعوا به أصلاً ، ولم يتفقوا عليه !؟ .

وهو ملمح طيب يذكر الدعاة والمربين ، ويؤكد على أهمية جو الحرية ، الذى كان من أثره الطيب ، هذا الاتفاق الجماعى والاقتناع بالفكرة قبل عرضها على الآخرين ، وأن لا تطالب الغير بما لم تقتنع أنت به أصلاً وعلى هذه الأسس يبنى الرجال ويصنع الأحرار .

3- **الشورى:** وهى سمة ترتبط بوجود السمة الأولى ، فلا شورى بلا حرية ، ولا حرية بلا شورى ، وهى مبدأ يكفى فقط أن نذكر أن سورة قرآنية عظيمة تحمل اسمها ، وفيها يقول الحق سبحانه مؤكداً على ضرورة وجودها : ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ [1] وهى صفة وميزة بل وركيزة من ركائز وجود أى مجموعة بشرية ، (ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة فى المدينة ، فإننا نجد أنها من صفة هذه الجماعة المسلمة ، مما يوحى بأن وضع الشورى أعمق فى حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاماً سياسياً للدولة ، فهو طابع أساسى للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازاً طبيعياً للجماعة)[2] .

بل وفى أشد درجات المحنة ، أثناء (غزوة أحد) ، وحتى لا يتهم هذا المبدأ بأنه قد تسبب فى تلك المصيبة ، كانت الوصايا القرآنية تتنزل وتركز على أهمية هذه الركيزة : ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[3] .

وفى أكثر من موقف ، كان – ﷺ – يقف ويقول : « **أشيروا علىَّ أيها الناس** » .

---

(1) الشورى : (38) .

(2) فى ظلال القرآن : سيد قطب 25 / 3160 .

(3) آل عمران : (159) .

وما خاب من استخار الخالق وشاور المخلوقين .

ولهذا كان الصديق – رضي الله عنه – يمنع التفرد بالرأى ، ويقـول : (إلزموا المساجد ، واستشيروا القرآن ، والزموا الجماعة وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر) [1].

وذلك لأن التفرد مناقض للكمال ، ومن باب النقص ، لأن (المستعين أحزم من المستبد ، ومن تفرد لم يكمل ، ومن شاور لم ينقص) [2] .

4- **التمحور حول الفكرة** : وهى سمة راقية ، عندما تشيع داخل المؤسسة ، لأنها تمثل قمة النضج فى حياة الإنسان أفراداً وجماعات ، حيث يصل كل فرد إلى مرحلة الترتيب الصحيح لأولوياته ، فتصبح الفكرة مقدمة على أى أمور أو مصالح أو ارتباطات أخرى فى حياته .

فإذا كان الطفل يمر بمراحل اجتماعية نفسية ثلاثة هى : مرحلة التمحور حول الأشياء ، ثم مرحلة التمحور حول الأشخاص ، ثم مرحلة التمحور حول الأفكار ، وكذلك

---

(1) عيون الأخبار 233/2 نقلاً عن : المسار : محمد أحمد الراشد 217 .
(2) الإمتاع والمؤانسة عن أبى حيان التوحيدى 65/1 .

المجتمعات ، تمر بنفس المراحل فى تطورها الحضارى [1] .

فإننا نؤكد أن ذلك واقع أيضاً فى حياة الداعية ، وإن تطوره التربوى والدعوى ، يمر بنفس المراحل ، حيث يبلغ قمة النضج عندما يصبح تمحوره حول الفكرة التى يؤمن بها ، والمبدأ الذى يحمله ، ويتعدى مرحلة التأثر والتمحور حول الوسائل والأشياء والماديات ، ومرحلة التمحور حول الأشخاص .

وتدبر مغزى هذا التوجيه الربانى لخير الأجيال ، حينما أصابهم الخور عندما سرت إشاعة مقتله - ﷺ - أثناء محنة (أحد) ، وذلك حتى يرتبطوا بالفكرة لا الشخص ولو كان خير من وطئ الحصى - ﷺ - ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ؟! ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [2] .

وتدبر موقف أنس بن النضر - رضي الله عنه - أثناء تلك المحنة ، خاصة بعد إشاعة مقتله - ﷺ - وكيف حمل اللواء وحرك الصحابة ، ليقوموا ويقاتلوا ويموتوا على ما مات عليه - ﷺ - وقاتل حتى استشهد ، فكانت مبادرة وحركة ذاتية فريدة ، تبين

(1) مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى : مالك بن نبى - طبعة دار الفكر 26-40 بتصرف .

(2) آل عمران 144 .

مدى نضجه وفقهه لضرورة الجهاد والموت فى سبيل الفكرة لا الأشخاص .

وهو المعلم التربوى العظيم ، الذى يذكر المربين بأهمية الوصول بالفرد إلى هذه الدرجة من النضج البشرى ، عندما يُعَاد صياغة عقليته ، لتتحرر من أسر وقيود الوسائل والأشياء والماديات ، ومن التأثر بالشخصيات إلى التمحور حول الفكرة التى يؤمن بها ، والمبدأ الذى يحمله .

وإذا نَضُجَ الفرد ، ، نَضُجَ المناخ الاجتماعى السائد ، وبالتالى يرتقى السلوك الاجتماعى للأفراد .

5- **بث روح التجديد ، وتشجيع الناحية الإبداعية** : وهذه سمة مهمة جداً ، إذا سادت المناخ الاجتماعى ، حيث تمثل معلماً مهماً ودلالة على نضج الأفراد سلوكياً .

فإذا كان الطالب فى العملية التعليمية (يمر بثلاث مراحل رئيسية هى :

• **مرحلة التكديس** : وهى مرحلة التلقى للمعلومات ، تتراكم لديه يوماً بعد يوم ، بصورة غير مرتبة ، أو منتظمة ، ومتعددة المجالات تليها :

• مرحلة أخرى : تتضح فيها الصورة فى ذهن الطالب ، ويتم ترتيب المعلومات بشكل أفضل حيث يبدأ فى تكوين

علاقات بينها ، تساعده على الهضم والاستيعاب ، ويمكن تسمية تلك المرحلة **بمرحلة الاستيعاب** ، تليها :

• **مرحلة الإبداع** : (حيث يستطيع الطالب أن يُعطى فكراً جديداً يختلف عما تلقاه ، ولكنه ينبع من جوهره ، ويرتكز عليه) [1].

وكذلك الداعية ، فإنه يمر بنفس المراحل فكرياً وثقافياً ودعوياً وحركياً وتنظيمياً وتربوياً .

ويكون فى قمة نضجه ، عندما نصل به إلى مرحلة الإبداع المنضبط بفكر المؤسسة ، ونظمها .

والخلل يحدث عندما يقف عند مرحلة معينة من هذه المراحل .

وهذا التطور والنماء ، لا يتم إلا فى المناخات الاجتماعية الصحية ، التى يسودها أجواء الحرية والشورى ، وهى عملية تربوية تحتاج إلى المربى الواعى الذى يرى فى كل فرد ما يميزه عن غيره ، فيوظف الطاقات فى مواضعها ، ثم ينميها ، لتبلغ مرحلة الإبداع ، وهى عملية ترتبط أيضاً بوجود الأفراد ذوى النفوس التواقة ، الطموحة إلى المعالى .

---

(1) دراسة فى البناء الحضارى - محنة المسلم مع حضارة عصره : د. محمود محمد سفر - كتاب الأمة 95 .

ولأهمية دور المربى ، فإليك كيف أن الفاروق - رضي الله عنه - قد وظف الطاقاتَ ، فأبدعت وبزت وتميزت فى جانب الإبداع الفكرى ، حتى قال : (من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى ابن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله قد جعلنى خازناً وقاسماً)[1] .

وفى جانب الإبداع الدعوى ، وكيف يكون التحرك بالفكرة فإن خير مثال لذلك ، هو ما كان فى سيرة (مصعب بن عمير) - رضي الله عنه - وكيف أنه وهو فرد واحد ، وفى خلال عام واحد ، أثر فى المحيط حوله ، وجعل الإسلام يدخل كل بيت فى المدينة .

أما فى جانب الإبداع الحركى المنضبط تنظيمياً ، فتدبر تلك القمة التى ارتقاها ثابت بن أقرم - رضي الله عنه - عندما تحرك أثناء محنة « مؤتة» وبعد استشهاد الثلاثة المعينين من قبله - صلى الله عليه وسلم - وهم زيد ابن ثابت ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبدالله بن رواحه - رضى الله عنهم - وكيف أخذ اللواء وأعطاه لسيف الله خالد - رضوان الله عليه - .

ولقد كان الفاروق - رضوان الله عليه - يعرف الفضل لأهل

---

(1) تاريخ عمر بن الخطاب : أبو الفرج بن الجوزى .

الفضل ، فيشجعهم ، فكان مما قاله : (عمير بن سعد نسيجٌ وحده) [1] .

وتدبر كيف أن عدم تطور ورقى الأتباع ، قد يعود إلى عدم صبر المربى وسرعة يأسه : (فهذا أبو جعفر الطحاوى يقص علينا أنه كان يقرأ على المزنى ، فقال له يوماً : والله لا أفلحت ، فغضب وانْفَلّ من عنده وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة وصار إماماً فكان إذا درس وأجاب فى المشكلات يقول : رحم الله أبا إبراهيم لو كان حياً ورآنى كفر عن يمينه) [2] .

وبعد ، فهذه بعض السمات التى من شأنها أن تكون مناخاً اجتماعياً صحياً ، لا نرى فيه مجالاً لكبت الأفكار ، ويتطور داخله الفرد ، والمربى أو القائد معاً ، فينتج عن ذلك سلوكاً اجتماعياً ، لا نرى فيه بعون الله وتوفيقه بروزاً لأى فكر معْوَج أو غير سوى ، أو ما نعرفه بفكر الكبت .



(1) صور من حياة الصحابة : د. رأفت الباشا 7/4 .

(2) معجم السفر : الأصفهانى 118 نقلاً عن القيادة : جاسم المهلهل 27 .

(8) الظاهرة التعميمية

« نزل نبىٌّ من الأنبياء تحتَ شجرة ، فلدغتهُ نملةٌ ، فأمرَ بجَهَازه فأخرجَ من تحتها ، ثم أمرَ ببيتها فأحرقَ بالنار ، فأوحىَ الله إليه : « فهلاَّ نملة واحدة »[1].

وفى رواية أخرى :

« أن نملة قرصتْ نبياً من الأنبياء ، فأمرَ بقرية النمل فأحرقتْ ، فأوحى الله إليه :

« أفى أنْ قرصتْك نملةٌ أهلكت أمة من الأمم تسبحُ »[2] .

يحكى الحبيب - ﷺ - ، هذه الرواية عن أحد الأنبياء ، وقد نزل تحت شجرة ليستريح فى ظلها من إجهاد السفر ، وكان منزله قريباً من إحدى قرى النمل ، وكان طبيعياً أن ينزعج النمل لذا قامت نملة من القرية النملية ، فقرصته ، وهى فى حالة دفاع عن النفس ، وعن الأرض .

ولأن النبى بشر فقد غضب ، وأمر بإخراج متاعه من تحت الشجرة ، ثم قام دون إنذار بحرق القرية النملية .

---

(1) رواه البخارى - كتاب بدء الخلق - باب (إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم) - 356/6 برقم 3219 .

(2) رواه مسلم - كتاب السلام - باب النهى عن قتل النمل - 1759/4 برقم 3219 م .

وعندما نتأمل هذا الحديث الشريف ، من خلال نظرة ذات بعدين :

أولاً : النظرة القريبة ذات البعد الظاهرى القريب المباشر ، والتى من خلالها ، نجد أن الرسول - ﷺ - من خلال قراءة هذه الصفحة من ملفات تاريخ الدعوة والدعاة ، يعلمنا عدة أمور حكيمة ، ودروس بليغة :

1- أن الأنبياء ما هم إلا بشر .

2- ألا نأخذ الكل بجريرة الفرد .

3- ليس هناك أحد فوق المراجعة ، والملاومة والنقد ولو كان نبياً .

4- إن الذى يُربى على أن يتأثم من قتل نملة ، يصبح نموذجاً راقياً يحافظ على نفوس العباد .

5- لا يجوز قتل النمل ، كما لا يجوز قتل بقية الحيوانات إلا المؤذى منها .

6- (أن النمل يسبح الله)[1] .

7- ضرورة قراءة التاريخ ، واستدعاء الرصيد التربوى لهذه الأمة الخاتمة ، من مخزونها المعرفى ، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة .

---

(1) صحيح القصص النبوى د. عمر الأشقر - دار النفائس - الأردن 167- 168 بتصرف .

8- أن الداعية يجب أن يهتم بالوسائل التوضيحية ، مثل القصة وضرب المثل ، فى تقريب فكرته .

9- خطورة دور الأدب فى المجال التربوى والدعوى .

ثانياً : النظرة البعيدة ، وهى التى تكون من خلال رؤية منهجية كلية فاحصة ، تستهدف البحث عن الوحدة الموضوعية العامة ، أو الوحدة المنهجية للقصة .

أو بمعنى آخر محاولة استجلاء الوحدة التربوية المترابطة الشاملة للقصة ، أو المغزى التربوى البعيد لها .

وهكذا فإن من ثمار هذه النظرة العميقة ، أن الحق سبحانه يمنُّ علينا بالخروج من النظرة الضيقة لحادثة حرق القرية النملية بجريرة أحد أفرادها ، بالخروج إلى استشعار السنة الإلهية التى وراء هذا الحدث .

والسنة الإلهية ، هى تلك القاعدة الربانية الثابتة ، التى لا تحابى أحد ، والمطردة (أى المتكررة) ، والعامة التى تنطبق على أى نوع من الأحياء .

ومن خلال تلك النظرة ، فإننا نستشعر أن القصة تلقى أضواءً وتفتح أبواباً ، لفقه ظاهرة دعوية مرضية ، وحالة تربوية اعتلالية ، وإن شئت قلت ظاهرة بشرية ، ألا وهى (**الظاهرة التعميمية**) .

ونقصد بها تلك النظرة التى تجعل صاحبها يطلق الأحكام العامة ، بناءً على وقائع فردية ، أو أحداث جزئية خاصة .

والتى تعتمد على تفسير مسبق للأقوال والأفعال .

وكذلك عدم الحيادية فى التدقيق وفى التوثيق حول أى قول أو فعل أو شخص .

فتكون النتيجة النهائية ، هى التقعيد الخاطئ للعموميات والكليات ، على أساس نظرة قاصرة للجزئيات .

والحكم على الأصول ، بناءً على فقه تجزيئى للفروع .

ونقول أن فقه هذه الظاهرة يتم من خلال فقه السنن الإلهية ، وذلك لأننا ندرك أن كل حركة فى هذا الوجود لا تتم بطريقة عشوائية - حاشا لله - ولكنها تتم من خلال قوانين أو سنن ربانية ثابتة .

لذا فإن مظاهر هذه الظاهرة إنما تنبع من نظرة الفرد التجزيئية للأشخاص والأقوال والأفعال والأحداث والأشياء .

• وقفات :

وقبل أن نتكلم عن مظاهر وأسباب علاج تلك الظاهرة ، يجب أن نقف لنوضح عدة أمور هامة :

الأمر الأول : إن علماء الأصول قد وضعوا أساسيات وقواعد للفقه وأصوله ، اعتماداً على النظرة الكلية الشاملة .

حيث نجد أن هناك قواعد فقهية كلية ، وهى عبارة عن

ضوابط أو قواعد عامة يسرى حكمها العام على جميع أو أكثر الجزئيات التى تكوّن منظومة أو مجموعة متشابهة .

وهى من أرقى الوسائل وأهم القواعد التى تقوم عليها عملية صياغة العقلية المسلمة ، صياغة منهجية كلية ، من شأنها الاهتمام بالكليات مع عدم اهمال الجزئيات .

وكذلك التربية على الاهتمام بمعالى الأمور ، والاستعلاء على السفاسف .

ويكفينا مثال لهذه القواعد الفقهية ، تلك القاعدة الكلية التى ترتبط بموضوعنا ، وهى (العبرة للغالب الشائع لا للنادر) .

و(الشائع) هو : الأمر الذى أصبح معلوماً للناس وذائعاً بينهم ، و(النادر) هو : القليل الحدوث .

فالمعول عليه فى ترتيب الأحكام هو الأمر الشائع لا الأمر النادر[1] .

الأمر الثانى : إن علماء الاجتماع ورواد الفقه الحضارى والاجتماعى ، قد أسسوا نظريات العلوم الإنسانية فى التاريخ والاجتماع ، على أساس النظرة المنهجية الكلية .

ويكفى أن نذكر بعض نظريات علم الاجتماع ، الذى وضع أسسه العلامة (ابن خلدون) وأوردها فى مؤلفه الرفيع

---

(1) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية - د. عبدالكريم زيدان - مؤسسة الرسالة - 86 - 87 بتصرف .

(المقدمة) :

1- أثر الهواء فى ألوان البشر وأخلاقهم .

2- أن من طبيعة الملك الترف والدَّعة والسكون . .

3- إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرَم .

4- أن الدولة لها أعمار طبيعية كما الأشخاص .

5- أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر .

6- أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب ، فى شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده .

7- أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة .

الأمر الثالث : إن من الظواهر البشرية المحيرة ، والتى جاء ذكرها فى أحد أعداد مجلة (reader digist) ، أن الإنسان العادى دوماً أسير قاعدة :

(مرتان يساوى دائماً) .

أى : إذا حدث لشخص ما واقعة ما فى مكان ما أو فى زمن ما أو مع شخص ما ، ثم تكررت مرة ثانية فى أى ظرف من هذه الظروف ، فنجد أن ذهنه سريعاً ما يربط هذه الواقعة الخاصة لا

شعورياً بالاستمرار مع ذلك الظرف الخاص ، فيردد :

- إن هذه الواقعة تقع لى فى هذا المكان دائماً !!! .

- إن هذا الحادث يقع لى فى هذا الوقت دائماً !!! .

الأمر الرابع : إن الفطـرة الإنسانية تستهجن - ولا شعورياً - الاتجاه المجحف للبعض عندما يربطون الأفراد والجماعات التى يضمها خيط فكرى أو مبدأى ، ربطاً سلوكياً ، ويصنفونهم تصنيفاً واحداً تحت لافتة واحدة ، بحيث لا يراعون الفروقات التى تميز كل فرد أو جماعة من حيث اختلاف الغايات والأهداف والرؤى والوسائل ، وكذلك اختلاف الظروف والبيئات .

مثلاً عندما يربط الإعلام بين الأفراد أو الجماعات العاملة لغاية إسلامية ، وتصنيفهم تحت مظلة اصطلاحية واحدة ، أو وضعهم جميعاً فى سلة تصنيفية واحدة .

وتكون رؤية هذا الفريق متأثرة بقصد أو دون قصد بحالة من الإرهاب الفكرى المنظم الذى يقوده القائمون على الآلة الإعلامية ، وكذلك بفعل تأثير حرب المصطلحات المعاصرة .

ونعود إلى قضيتنا ، وهى الظاهرةالتعميمية .

وسنحاول اختزال تحليلها فى المجال الذى يهمنا وهو المجال الدعوى التربوى .

• المظاهر :

1- أنك تجد البعض إذا سمع - ولا نقول قرأ - عن شخص ما أى مقولة أو فعل ما ، فإنه وفى الحال يتكون لديه قناعة فكرية معينة ، تجعله يتخذ موقفاً ثابتاً لا يتغير حيال كل الأقوال والأفعال الأخرى لهذا الشخص .

2- أنك تجد البعض إذا قرأ لكاتب فكرة معينة فى مقال أو كتاب له ، وتكون الفكرة لا تروق أو لا تنسجم مع قناعته الفكرية ، فإنه وفى الحال يتخذ موقفاً ثابتاً تجاه بقية ما كتب .

3- أن البعض إذا سمع أو قرأ عن فكرة معينة فى مقال لشخص ما فى مرحلة فكرية أو عمرية له ، فإن هذه الفكرة تظل تطارد ذلك الشخص طوال حياته ، وتلاحقه فى كل مراحله الفكرية اللاحقة .

وتلك النظرة قد وضحناها تحت (**ظاهرة التقليب فى الملفات**) .

4- أن البعض إذا سمع عن قول أو هفوة لفرد ما فى جماعة ما ، فإنه سرعان ما يوصم بقية أفراد تلك الجماعة بذلك القول ، أو يتهم بقية أفرادها بتلك الهفوة .

• الأسباب والعلاج :

وسنحلل الأسباب والعلاج معاً ، وذلك لارتباط كل سبب بالعلاج الخاص به .

ولأن الوقوع فى إسار هذه الظاهرة ، يكون على مراحل أو

خطوات ، وكأنها حلقات لسلسلة واحدة ، فإذا لم يتم قطع هذه السلسلة فى أى حلقة من حلقاتها فستسلم إلى الحلقات أو الخطوات الأخرى :

• الخطوة الأولى : عدم الدقة فى توثيق الخبر أو الواقعة :

وحتى يتم قطع سلسلة الوقوع فى هذه الظاهرة ، علينا أن نتأمل منهجه - ﷺ - فى توثيق الخبر ، ونحاول التأسى به ، استناداً إلى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [1] .

وتدبر موقفه ﷺ ، يوم (بنى المصطلق) ، حول هذه الحادثة حيث روى « عَنْ زيد بْن أرْقَم قالَ : كنتُ فى غَزَاة فسَمعْتُ عَبْدَالله بْنَ أبىّ يَقولُ : « لا تنفقوا على مَنْ عند رَسُول اللّه حَتى ينفضـوَا منْ حَوْله ولَئنْ رَجعْنَا منْ عنْده ليُخْرجَنَّ الأعَز منْهَا الأذَلَّ » .

فذكَرْت ذَلكَ لعَمّى أو لعُمَرَ فذكَرَهُ للنَّبىِّ - ﷺ - فدعانى فحدثته فأرسلَ رسولَ الله - ﷺ - إلى عبدَالله بن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فكذبنى رسول الله - ﷺ - . . . وصَدَّقهُ ، فأصَابنَى هَمٌّ لمْ يُصبنْى مثلهُ قط ، فَجَلسْتُ فى البَيْت فَقالَ لى

(1) الحجرات (6) .

عَمّى : مَا أَرَدْتَ إلى أنْ كَذَّبَك رَسُولُ اللّه ﷺ وَمَقَتَكَ ، فأنْزَلَ اللّه تَعَالى ﴿ إذَا جَـاءَكَ الْمُنَافقُونَ ﴾ فَبَعَـثَ إلىَّ النَّبى ﷺ فَقرَأَ فَقَالَ : « إنَّ اللّهَ قدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ »(1) .

فتدبر خطوات التوثيق ، لقد سمع - ﷺ - الخبر من عم زيد أو عمر - رضى الله عنهم - ، فبعث إلى صاحب الخبر وهو زيد - رضي الله عنه - وهو الغلام الصغير فلما سمع منه ، وتأكد من مقالته ، بعث إلى الطرف الآخر ، وهو عبدالله بن أبى بن سلول ليسمع منه ، ولم يمنعه معرفته بالأخير معرفة موثقه من وحى السماء ، أنه رأس المنافقين .

ولكن تحت مبدأ التوثيق وحق الآخر فى عرض رأيه بعث إليه ، بل وصدقه وكذب الغلام ، لأنه ﷺ يأخذ بالظاهر ويكل سرائر الخلق إلى خالقهم .

• الخطوة الثانية : عدم العدل والموضوعية أو الحيادية ، فى تلقى الخبر أو الواقعة :

وحتى نعالج هذا الأمر نتدبر القصة المذكورة ، ونتأمل ما أورده (المقريزى) حول قولة ابن سلول ، حيث كان زيد بن أرقم حاضـراً - وهـو غـلام لم يبلغ أو قد بلغ - فحـدَّث رسول الله - ﷺ- بذلـك وعنـده نفر من المهاجرين والأنصار ، فتغير

(1) رواه البخارى - كتاب تفسير القرآن - برقم 4520 .

وجهه ، ثم قال :

يا غلام ، لعلك غضبت عليه ؟! .

قال : لا والله لقد سمعت منه .

قال : **لعله أخطأ سمعك !.**

قال : لا يا نبي الله .

قال : **فلعله شُبِّه عليك ! .**

قال : لا والله لقد سمعت منه يا رسول الله .

وما أحوجنا إلى التأسى بهذا المنهج جنوداً ومسؤولين ، لقد وضع رسول الله - ﷺ - ثلاثة احتمالات قبل أن يتبنى هذا القول ويبنى عليه :

الاحتمال الأول : أن يكون ناقل الكلام مغرضاً .

الاحتمال الثانى : أن يكون ناقل الكلام غير دقيق فى نقله .

الاحتمال الثالث : أن يكون الفهم خاطئاً للكلام .

فلن تخرج الاحتمالات عن هذه المجالات الثلاثة [1] .

ولو استشهدنا بأدبيات عصرنا ، لنعرف عاقبة عدم توثيق الخبر ، لوجدنا أن هناك قصة قصيرة رائعة للدكتور (نجيب الكيلانى) رحمه الله ، بعنوان (العار) فى مجموعته القصصية (الكابوس) .

---

(1) المنهج الحركى للسيرة النبوية : منير الغضبان - مكتبة المنار - الأردن - الجزء الثانى 260- 267 بتصرف .

• الخطوة الثالثة : عدم الكياسة وغياب العدل فى التعامل مع الخبر أو الواقعة :

فالكثير يتعامل مع الأخبار الموثوقة أو غير الموثوقة ، تعاملاً فجاً ، غير مدروس فيتناولها فى مجالسه العامة والخاصة ، دون حيطة أو حذر ، بأسلوب ببغائى ! .

ونسى ما ورد فى ذم من يتناول الأخبار ، دون روية ، كأنه إذاعة متحركة : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾[1] .

فلابد عند نقل الخبر ، أن نزن الظروف من حيث الوقت ، ومن حيث الحضور ، كما قال الإمام علىّ - رضي الله عنه - :

- ليس كل ما يُسمع يُقال ، وليس كل ما يُقال حضر وقته ، وليس كل ما حضر وقته ، حضر رجاله .

- الناس ثلاثة : عالمٌ ربانى ، ومتعلمٌ يبغى النجاة ، وهمجٌ رعاع يتبعون كل ناعق ! .

• الخطوة الرابعة : غياب الدقة فى الأحكام :

فيكون المعمول به للأمر النادر ، وليس للأمر الشائع .

ويكفى أن نذكر بما توجهنا إليه القاعدة الفقهية ، التى تؤكد على أن : (العبرة للغالب الشائع لا للنادر) .

---

(1) النساء (83) .

وأن نتدبر تحذير الله عز وجل من عدم الحيادية فى الأحكام :

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وبعد . . .

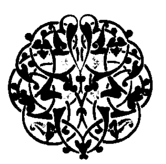
فهذه نظرة تحليلية متواضعة لهذه الظاهرة .

والمقصود أن تكون العملية التربوية مهتمة بصياغة العقلية المسلمة ، صياغة راقية ، فتربى على أصول وقواعد وضوابط تخرج بها من النظرة التجزيئية الضيقة ، إلى النظرة الكلية الرحبة .

وتأمل كيف أن الجزاء من جنس العمل فى كل شىء .

فمن أفسح ، أفسح الله له في الجنة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[2] .



(1) المائدة (8) .

(2) المجادلة (11) .

(9) الظاهرة الدونية

عن أبى موسى ـ رضي الله عنه ـ : «أن رسول الله ـ ﷺ ـ نزل بأعرابى فأكرمه .

فقال له :

يا أعرابى سل حاجتك

قال :

يا رسول الله ناقة برَحْـلِها وأعْنـزٌ يحلبها أهلى .(قالها مرتين) .

فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ :

أعَجَزْتَ أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟!!!!

فقال أصحابه :

وما عجوز بنى إسرائيل ؟! .

قال :

إن موسى أراد أن يسير ببنى إسرائيل فأضلَّ عن الطريق فقال له علماء بنى إسرائيل : نحن نُحدثُكَ أن يوسف أخذ علينا مواثيق الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا .

قال :

وأيكم يدرى أين قبرَ يوسف ؟ .

قالوا :

ما تدرى أين قبر يوسف إلا عجوز بنى إسرائيل !.

فأرسلَ إليها .

فقال :

دُلّينى على قبر يوسف .

فقالت :

لا والله لا أفعل حتى أكون معك فى الجنة .

قال :

وكرهَ رسول الله ما قالت .

فقيل له :

أعطها حكمها ،فأعطاها حُكمها ، فأتت بُحيرة .

فقالت :

انضبوا هذا الماء

فلما نضبوه .

قالت :

احفروا هاهنا .

فلما حفروا إذا عظام يوسف ،فلما أقلوها من الأرض ،فإذا الطريق مثل ضوء النهار » (1).

يحكى الحبيب ـ ﷺ ـ هذه القصة الطيبة لأصحابه رضوان الله عليهم ،وكأنهم فى استراحة إيمانية،وحاشاه ـ ﷺ ـ أن يسردها لمجرد التسلية والترويح فقط .

فليست مجرد سرد لقصة عجوز،من أمة غابرة طوتها حركة التاريخ التبادلية التغييرية .

ولكن المرأة كانت غاية فى الحكمة ،مما دعى الحبيب ـ ﷺ ـ أن يذكر قصتها فى مقام الحث على السمو،واستثمار المواقف ويعلم أتباعه من الرجال قبل النساء ،الكثير من الدروس التربوية العظيمة ،والحكم البليغة ،والتى منها :

1ـ أن نشكر كل من أسدى إلينا معروفاً .

وتأمل مبادرة الحبيب ـ ﷺ ـ حينما سأل الأعرابى ليجازيه على استضافته .

وهو من باب إكرام ذوى الفضل فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوى الفضل .

---

(1) أخرجه الحاكم في مستدركه 624/2 ورقمه :4088ـ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ،ولم يخرجاه.

2 ـ أهمية النصيحة ،وهى من باب الأمر بالمعروف فى كل وقت.

وتأمل سؤاله ـ ﷺ ـ للأعرابى .

3 ـ العمل على المبادرة والتنافس على الخير ،واستثمار المواقف ، ففرص النجاح فريدة ولا تتكرر ،وقد أحسنت تلك العجوز استثمار الموقف .

4ـ الثبات على المبدأ.

وتدبر صلابة المرأة وتصميمها على ما طلبته من أجر ،وذلك لثقتها فيما تحمله من معلومات تحتكر مصدرها.

5 ـ مدى حرصه ـ ﷺ ـ على الارتقاء بفكر وسلوك أتباعه، ومدى اهتمامه ـ ﷺ ـ فى كل مناسبة ،وبكل أسلوب أن يحاول الرقى باهتمامات الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وكذلك أمته من بعده، لينشغلوا بمعالى الأمور.

6 ـ من جوانب البناء الأخلاقى والسلوكى الراقى للمنهج الإسلامى، أنه يربى النفوس على أن تكون مرتبطة بموازين اليوم الآخر الربانية ،فيكون الفرد يسير بجسده على الأرض ،ونفسه منشغلة بالفردوس الأعلى من الجنة .

7 ـ إخبار الرسول ـ ﷺ ـ ببعض الوقائع الدقيقة التى وقعت لأهل الكتاب ، مما لا يعرفه أهل الكتاب ، ومن ذلك قصة هذه العجوز .

8 ـ قد يحرم العباد التوفيق إن لم ينفذوا مراد الله وشرعه، (كما ضاع بنو إسرائيل عند تركهم عظام يوسف - عليه السلام - حال خروجهم) [1].

9 ـ بركة الوفاء بالعهود ، جعلت الطريق كضوء النهار .

10 ـ أهمية الدور التربوى للقصص .

11 ـ أهمية قراءة التاريخ ، واستدعاء الرصيد التربوى ، من المخزون المعرفى للأمة ، والممثل فى القرآن الكريم والسنة المباركة .

12 ـ تكريم المنهج الإسلامى ، لدور ومشاركات المرأة وحكمتها التى قد تسبق بها الكثير من الرجال .

وهذه الدروس هى مجمل للنظرة القريبة ذات البعد الظاهرى للقصة .

ولكننا عندما نتدبرها من جانب آخر، من خلال نظرة

(1) صحيح القصص النبوى د / عمر الأشقر ـ طبعة دار النفائس ـ الأردن ـ 107 بتصرف .

بعيدة، تغوص فى بحر هذا الكنز النبوى التربوى الرفيع، محاولين توضيح واستجلاء بعض أسراره ، من خلال منهجية عامة نتبعها عند محاولة فتح ملفات القصص القرآنى والنبوى ، ومحاولة القراءة المتدبرة له ، حيث نبحث عن الوحدة الموضوعية ، والفكرة التربوية العامة، أو المحور التربوى الذى تدور حوله القصة .

وهى محاولة متواضعة تسترشد بفقه السنن الإلهية أو القوانين الإلهية العامة، وأقداره سبحانه التى تحرك الأحداث وراء الستار .

وهى وسيلة تربوية ترقى بالعقلية المسلمة ، فتخرج من الإطار الضيق للحدث ، إلى آفاق تربوية رحبة .

فالقضية هنا تتجاوز النظرة الضيقة إلى الحادثة، وتنظر إلى الآفاق الرحيبة لنصيحته ـ ﷺ ـ للأعرابى ، حيث تفتح لنا باباً لاحباً رحيباً يكشف لنا ظاهرة تربوية ، وهى (**الظاهرة الدونية**) .

وهى ظاهرة مرضية تصيب البعض عندما يتعرضوا لسننه سبحانه الإلهية، فيصابون بداء قصر النظر التربوى ، فتتضخم أمام أنظارهم الأشياء الدونية، على حساب كبار الأعمال ، فيهتمون بصغائر الأمور، على كبيرها ، فتكون النتيجة أن ينطبع سلوكهم الحياتى العام على مبدأ الولوع بالسفاسف .

فالجزاء من جنس العمل ! .

وسنركز فى دراستنا المتواضعة لتحليل هذه الظاهرة ،فى المجال الذى يهمنا ،وهو المجال الدعوى التربوى .

• المظاهر:

وتتجلى تلك الظاهرة فى بعض المظاهر منها :

1 ـ اهتمام البعض بالكم على حساب الكيف والنوعية .

2 ـ اهتمام البعض بالثمار العاجلة عن الآجلة ولو كانت أعظم .

3 ـ انشغال البعض بالجزئيات على حساب الكليات .

4 ـ انخداع البعض بالأمور الظاهرة البراقة على حساب جوهر الأشياء .

5 ـ غياب روح الإيجابية والمبادرة .

6 ـ إهمال البعض للأولويات وحق الوقت .

• طرق العلاج والوقاية:

أما كيف نعالج هذه الظاهرة المرضية ؟!!

فإننا نتلمّس خطى منهجنا الإسلامى الكريم،وهو يربى النفوس ،ويعالج انحرافات الطريق ،من خلال التربية المستمرة .

أو ما يعرف بنظرية (التربية بالحدث) ،أى معالجة المشكلة

عندما تحدث بأساليب علاجية مؤقتة، ثم يضع - فى نفس الوقت - المنهج الوقائى لأى مشكلة أو ظاهرة مشابهة.

ولنأخذ كل مظهر من مظاهر تلك الظاهرة المرضية على حدة، ونحاول أن نتدبر طرق المعالجة والوقاية. :

• أولاً: اهتمام البعض بالكم على حساب الكيف والنوعية:

ولعل من أعظم المحن التى تعرضت لها الدعوة، هى جولة الهزيمة الأولى أثناء معركة (حُنين) ، عندما اغتروا بالكم ولم ينظروا إلى النوعية، فكانت الوقفة القرآنية:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعدتهم ، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قلَّ الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين

(1) التوبة: 25-27 .

أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده ، وإن قَلَّ الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين)[1].

لهذا كانت توجيهاته ـ ﷺ ـ : أن نهتم بالنوعية، وأن نبحث عن الرواحل ، ذوى النسب القليلة :

« **إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجدُ فيها راحلة** »[2].

وفى موضع آخر ، يقدم لنا ـ ﷺ ـ نموذجاً للنظرة المستقبلية الاستشرافية، فيشخص مرض عصرنا، ألا وهو مرض (الغثائية) والذى يعود إلى ضعف النوعية، رغم الكثرة العددية :

« **يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذُ ، **قال:** « **بل أنتم يومئذُ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن** » فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ **قال** : « **حب الدنيا وكراهية الموت** »[3].

---

(1) تفسير القرآن العظيم / : ابن كثير ـ تفسير سورة التوبة .

(2) صحيح البخارى : كتاب الرقاق ـ برقم 6017 .

(3) سنن أبي داود : كتاب الملاحم ـ برقم 3745 ـ ومسند أحمد : كتاب باقى مسند الأنصار ـ برقم 21363 .

• ثانياً: اهتمام البعض بالثمار العاجلة عن الآجلة ولو كانت أعظم:

لقد كانت المنهجية التربوية التى ينهجها ـ ﷺ ـ هى التربية على الأهداف البعيدة والغايات العلى ،أو ما يسمونها (الاستراتيجية العامة) ،وذلك مع عدم إهمال الأهداف المرحلية، أو ما يسمونها (الخطط التكتيكية).

أى أنه ـ ﷺ ـ كان يخطط ـ وبوحى منه سبحانه ـ من أجل بعث مشروع حضارى ،ويهدف إلى بناء أمة من عدم، لتكون خير أمة تخرج إلى الناس ،كل الناس . . وكان يحمل هم رسالة ربانية ،يختتم بها الرسالات السماوية.

لهذا كان يغضب لله تعالى ،إذا شغله شاغل عن أهدافه العظام ،فلم يستدرج إلى فورات عفوية، ولم ينشغل بمعارك جانبية .

وتدبر كيف كان ـ ﷺ ـ يبعث هذه الروح التربوية العظيمة فى نفوس أصحابه ؟!!.

وكيف كان يوجههم إلى الثمار الآجلة الباقية الكبرى ،ويبرأ بهم عن الثمار العاجلة الصغرى ؟!.

وكيف كان يحذرهم من آفة الاستعجال ؟!.

عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ

وهو مُتوسِّد بردة له فى ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ، قال: **« كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أوعصب وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليُتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»** (1).

● ثالثاً: انشغال البعض بالجزئيات على حساب الكليات:

فى الفترة المكية من عمر الدعوة ،وهى المرحلة التأسيسية التى كانت تهدف إلى بناء الطليعة المؤمنة،المرشحة لقيادة التغيير الحضارى ،وهى القاعدة الصلبة فى البناء ،أو هى جيل التأسيس القرآنى الفريد.

لو تدبرنا ما نزل أثناء تلك الفترة من قرآن كريم ،خاصة ما ورد من تجارب دعوية تغييرية ،مثل قصة (أصحاب الكهف) لاستوقفنا مغزى تلك الرسالة ،وهى أحد التعقيبات القرآنية على أحداث القصة:

---

(1) صحيح البخاري : كتاب المناقب ـ برقم 3343 ـ وسنن أبى داود : كتاب الجهاد ـ برقم 2278 ـ ومسند أحمد : كتاب مسند البصريين ـ برقم 20148 ـ 20161 ـ وكتاب مسند القبائل ـ برقم 25959 .

حيث تنبأ القرآن الكريم، حول ما سيحدث من البعض عندما تتحول القضية عندهم إلى مجرد خلاف حول العدد : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى سينقسم الناس إلى فرق ثلاث ، الأول سيقول : إنهم ثلاثة رجال ومعهم كلبهم ، والفريق الثانى سيقول : إنهم خمسة رجال ومعهم كلبهم . وهؤلاء وهؤلاء ـ وقيل أنهم (نصارى نجران) ـ يقذفون بالظن غير يقينين . أما الفريق الثالث ـ وقيل أنهم هم (المؤمنون)ـ فسيقول : إ نهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وهو الرأى الذى سكت عنه وقرره سبحانه ، وهو ما رجحه ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ فقال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل كانوا سبعة (1) .

فتدبر هذا الخلاف والتنازع ، على أمور فرعية وجزئيات ، قد لمح السياق القرآنى إليها ، وفهمها القليل فأعلنوها . فهذا الجدل حول عددهم لا طائل وراءه . (والعبرة فى أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير . لذلك يوجه القرآن الرسول ـ ﷺ ـ إلى ترك الجدل فى هذه القضية ، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين فى

(1) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير 82/3 و83 بتصرف .

شأنهم ، تمشياً مع منهج الإسلام فى صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير ما يفيد . وفى ألا يقفو المسلم ما ليس له به علم وثيق . وهذا الحادث الذى طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله ، فليترك إلى علم الله[1].

● رابعاً : انخداع البعض بالأمور الظاهرة البراقة على حساب جوهر الأشياء :

وهذه الأشياء البراقة ،التى تصيب العيون والأبصار بالزوغان ،قد تكون أشياء مادية،وقد تكون أشياء فكرية أو حركية .

فينخدع بها كل من كان عنده استعداد للانخداع .

ويزوغ بها وفيها كل من يملك قابلية للزوغان .

1 ـ أما بالنسبة للزوغان المادى ، فتدبر تلك الحادثة :

« وبينما صبى يرضع من أمه ،فمر رجلٍ راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ،فقالت أمه: اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه ،فقال : اللهم لا تجعلنى مثله .ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع .قال : فكأنى أنظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحكى ارتضاعه باصبعه السبابة فى فمه فجعل يمصها، **قال:**

---

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 2265/15 .

ومروا بجارية وهم يضربونها ،ويقولون : زنيت سرقت .وهي تقول : حسبي الله ونعم الوكيل .فقالت أمه : اللَّهمَّ لا تجعل ابنى مثلها .فترك الرضاع ونظر إليها ، فقال :اللَّهمَّ اجعلنى مثلها .فهناك تراجعا الحديث فقالت: حلقى – دعاء يقوله الإنسان بوجع حلق المدعو عليه بحيث لا يضره هذا الوجع – مرَّ رجلٍ حسن الهيئة فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ، ومرُّوا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت فقلت اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فقلت : اللَّهمَّ اجعلنى مثلها .قال : إن ذاك الرَّجل كان جباراً فقلت اللَّهمَّ لا تجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلنى مثلها » (1).

وتأمل كيف يأتى التصحيح والمراجعة من رضيع لأمه، وهو أحد الذين تكلموا فى المهد .

2 ـ وأما بالنسبة للزوغان الفكرى ،فتأمل ما ورد أيضاً حول قصة (أصحاب الكهف) ،وتدبر أيضاً المرحلة التى نزلت فيها، ومغزى الرسالة التى تحذر من خطر انحرافات الطريق :

لقد شاء الله سبحانه أن يتوفى هؤلاء الفتية ،وذلك بعد انتهاء دورهم، وهو الدلالة على صحة قضية اليوم الآخر ،وبعد أن رأوا ورآهم قومهم .ثم حدث الخلاف فى التعامل مع هؤلاء

(1) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ برقم 4626 .

الفتية بعد وفاتهم ، وقال بعض الناس : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ﴾ . لا يحدد عقيدتهم : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ وبما كانوا عليه من عقيدة ، وقال أصحاب السلطان فى ذلك الآوان ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ . والمقصود معبد ،على طريقة اليهود والنصارى ،فى اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين . وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ـ ﷺ ـ [1] .

فتدبر هذا المزلق والانحراف الخطير ، والانتكاس الذى يأتى فى وقت غريب فى خط سير الدعوات، وفى قت ظهور آياته سبحانه جلية سافرة . وهو يذكرنا بما وقع من أصحاب موسى - عليه السلام - عندما حنُّوا إلى الماضى الوثنى :﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

وأيضاً ما حدث من أصحابه ـ ﷺ ـ : « خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى (حُنين) ونحن حدثاء عهد بالكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال

(1) فى ظلال القرآن : سيد قطب 15 / 2264 .
(2) الأعراف (138 - 140) .

لها (ذات أنواط) ، فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : **الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى – عليه السلام – : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ . لتركبن سنن من كان قبلكم »**[1] .

وهذا يعطينا ملمحاً تربوياً طيباً ، وهو أن الانحرافات متوقعة فى أى صف ، وتحت أحسن الظروف .

والانتكاس دوماً يأتى من فريقين ، إما من الجدد ، أو من المهزومين أمام ضغط الواقع ، المبهورين بأى ذات أنواط عصرية يزينها الباطل ، ويصدرها خاصة ذات الأنواط الفكرية ، والحركية .

والمخرج ـ بعد توفيقه سبحانه ـ هو التقويم السريع من القيادة الواعية ، فتربى الجدد وتعيد صياغة فهمهم ، ثم تعطى للمبهور درساً فى معنى التميز والاستعلاء الإيمانى .

3 ـ وأما بالنسبة للزوغان الحركى ، فيكفى أن نشير إلى آفة الاستعجال ، التى وردت فى قصة خباب ـ رضي الله عنه ـ ، التى ذكرناها آنفاً .

---

(1) رواه الترمذى وصححه .

• خامساً غياب روح الإيجابية والمبادرة:

ونقصد بروح المبادرة ، ـ كما يعرفها (ألبرت هابرد) هى : القيام بالشىء الصحيح من دون أن يُطلب منك ذلك .

ونحن نضبطها بضابط مهم ، ألا وهو أن تكون متفقة مع السياسة العامة للمؤسسة التى ينتمى إليها الفرد ، وهى ما نسميها (بنظرية استثمار المواقف) .

وتأمل موقف العجوز عندما استثمرت الموقف ، لعلمها أن فرص النجاح فريدة ولا تتكرر ، وتدبر صلابتها وتصميمها على ما طلبته من أجر ، وذلك لثقتها فيما تحمله من معلومات تحتكر مصدرها .

وتأمل أيضاً كيف استثمر (عكاشة) ـ رضي الله عنه ـ الموقف وذلك فيما روى : « سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّب أنَّ أبا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ـ ﷺ ـ يقول : « **يدَخل الجنة من أمتى زُمْرةٌ هُمْ سبعون ألفاً تضىء وجوههم إضاءة القمر لَيلَةُ البَدْر** » ، وقال أبو هُرَيْرَة : فقام عكاشة بْنُ محْصَن الأسدى يرفع نَمرَة عليه فقال : يا رسول الله ادع اللهَ أن يَجعلنى منهم . قال : **اَللَّهم اجعله منهم** . ثم قام رجلٌ من الأنصار فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : **سبقك بها عكاشة**» [1] .

---

(1) رواه البخارى : كتاب الرقاق ـ رقم 6060 ـ ورواه مسلم : كتاب الإيمان ـ برقم 317و318و319 ـ ورواه الإمام أحمد : كتاب باقى مسند المكثرين ـ برقم 8835 و9503و10120 .

وتدبر الدعـوة الربانيـة إلى المسـارعـة فى الخـيـرات ، دون تراخ : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] . و﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[2] .

بل ويجـعل الحق سبـحـانه هذه الروح السبـاقـة إلى فـعل الخيرات ، أحد موازين التقييم للعباد ، ومن أسباب المسارعة فى استجابة الدعاء ، فالجزاء من جنس العمل ، وتأمل ذلك التقدير القرآنى حول صفات أسرة زكريا عليهم السلام : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[3] .

وتدبـر وصـــــاياه ـ ﷺ ـ : « **تعـجلوا إلى الحج ـ يعنى الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له** »[4] .

«**بادروا إلى الأعمال سبعاً .هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ،أو غنى مطغياً ،أو مرضاً مفسداً ،أو هرماً مفنداً ،أو موتاً مجهزاً ،أو الدجال فشرّ غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر** »[5] .

---

(1) آل عمران : (133) .

(2) البقرة : (148) .

(3) الأنبياء : (89- 90) .

(4) رواه أحمد .

(5) رواه الترمذي وقال : حديث حسن

وهو ملمح تربوى ،يركز على أهمية بث روح المبادرة والتنافس بين الأفراد ،وهذا من شأنه أن يساعد على إيجاد الإيجابيين ،السَّباقين التَّواقين للمعالى ،ويقلل من روح العفوية أو السلبية ،ويقى من بروز (ظاهرة الإمَّعية)! .

• سادساً: إهمال البعض للأولويات وحق الوقت:

وعندما يصاب المرء بذلك الداء ،ينتج عن ذلك حالة من الخلل الفكرى فيهتم بالمفضول عن الأفضل ،وكذلك الخلل الحركى ،فيقاتل فى سبيل المرجوح مهملاً الأرجح .

والأمثلة كثيرة ،ولكن لنتأمل تلك الحادثة لنرى مدى رقى التربية التى أنتجت تلك العقلية السويَّة ،التى رأت الخلل فلم تجد بُدا من تصحيحه ،تصحيحاً عملياً،ثم جاء دور القيادة الربانية لتقر هذه المبادرة التصحيحية .

وهى الحادثة التى حكاها « عَوْن بْن أبى جُحيفة » عن أبيه قال :

آخى النبى – ﷺ – بين سلمَان وأبى الدَّرْدَاء . فزَارَ سلمانُ أبا الدَّرْدَاء ،فرأى أم الدَّردَاء مُتَبَذِّلة . فقال لها : ما شأنك؟ . قالت : أخوك أبو الدَّرْدَاء لَيْسَ لَه حاجة فى ا لدُّنى . فجاءَ أَبُو الدرداء فصنع له طعاماً .َفقال : كل . قال : فإنى صائم . قال: ما أنا

بآكل حتى تأكل . قال : فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال : نم فنام . ثم ذهب يقومُ . فقال : نمْ . فلما كان من آخر الليل قال سَلْمَانُ : قم الآن ، فصلَّيا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حقٍّ حقهُ . فأتى النبى ـ ﷺ ـ فذكر ذلك له فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **صدق سلمان** » (1) .

• وأخيراً..

نقول إن تلك الجوانب أو المظاهر إذا روعيت ، فإننا نؤكد أن ذلك من شأنه أن ينتج لنا نوعية راقية ، ذات عقلية سوية تستشعر خطورة المرحلة التى تمر بها الأمة ، وهى مرحلة الاستنقاع والتردى الحضارى .

تلك النوعية المنشودة ذات الهمة العالية ، التى تفقه دورها ، وتقبل التحدى ، فتشارك فى عملية التغيير الحضارى وتحذر العابثين ، ولسان حالها يردد أبيات هاشم الرفاعى ـ رحمه الله :

فيا أيها القوم الذين بلوتهم   فأغرقنى من خبث أخلاقهم سيلُ
لقد جاءكم منى سليمان فادخلوا   مساكنكم فى الأرض يا أيها النملُ

---

(1) صحيح البخاري : كتاب الصوم ـ برقم 1832 ـ سنن الترمذي : كتاب الزهد ـ برقم 2337 .

(10) ظاهرة الانغلاق على الذات

« عن صهيب -رضي الله عنه- قال : كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا صلى همس شيئاً لا أفهمه ولا يخبرنا به .

قال : أفطنتم لى .

قلنا : نعم .

قال : إنى ذكرت نبياً من الأنبياء أعطى جنوداً من قومه .

فقال : من يكافىء هؤلاء أو من يقوم لهؤلاء أو غيرها من الكلام .

فأوحى إليه أن اختر لقومك إحدى ثلاث ، إما أن نسلط عليهم عدواً من غيرهم أو الجوع أو الموت .

فاستشار قومه فى ذلك : فقالوا : أنت نبى الله ، فكل ذلك إليك ، خِرْ لنا .

فقام إلى الصلاة ـ وكانوا إذا فزعوا ، فزعوا إلى الصلاة ـ فصلى ما شاء الله .

قال : ثم قال : أى رب أما عدو من غيرهم فلا ، أو الجوع فلا ولكن الموت .

فسلط عليهم الموت ، فمات منهم سبعون ألفاً .

فهمسى الذى ترون أنى أقول : اللهم بك أقاتل وبك أصاول ولا حول ولا قوة إلا بالله » (1) .

يحكى رسولنا الكريم ﷺ قصة نبى من الأنبياء عليهم السلام ، وقد نظر إلى ما رزقه سبحانه من أمة قوية عظيمة القدر، كثيرة العدد ، فأصابه العجب ، ورأى أن أمته تملك من مقدرات العدد والقوة ، مما يجعلها فى منزلة فوقية ، فوق كل الأمم ، فلا تستطيع أن تقوم أمامها قوة ، ولا يمكن أن يغلبها أحد .

فكانت المراجعة الإلهية السريعة ، لهذا النبى الكريم ، الذى تسرب إليه مرض العجب ، وهو ما لا ينبغى أن يقع لأى قائد ربانى ، فما بالك بنبى كريم وقدوة يُتأسى بها .

وكانت المعالجة الربانية على هيئة عقاب ، ذو صور ثلاثة وليختار إحداهن ! .

وبعد مشاورة مع قومه ، وتضرع إلى الله عز وجل ، ثم

---

(1) (مسند الإمام أحمد) باقى مسند الأنصار برقم 22801 ـ والألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة : 5/ 588 ـ والترمذى 2/ 236 ـ237 ومسلم 8/ 229 ـ231 .

موازنة بين الخيارات ، أن فضل النبى - ﷺ- خيار الموت ، حيث مات من أمته سبعون ألفاً .

وبنظرة قريبة ، إلى هذه القصة الطيبة ، نجد بعض الدروس التربوية العديدة ، فمنها :

(1) ـ خطورة مرض العجب وعاقبته الوخيمة .

(2) الأنبياء بشر ، من حقهم الخطأ ، ولكن عليهم واجب قبول المراجعة والمعاتبة والنقد والتصحيح .

(3) ليس هناك أحد فوق النقد ولو كان نبياً .

(4) الرحمة الإلهية تتجلى فى كل الأمور ، حتى فى حالة المحن ، وهو من باب اللطف الإلهى . ونلمح ذلك من فتحه سبحانه لباب الاختيار أمام النبى - ﷺ- ، ليفاضل ويختار إحدى صور العقاب الثلاثة .

(5) أهمية الشورى ، والحرية فى إبداء الرأى .

(6) وجود أمم صالحة من قبلنا كثيرة العدد ، فيها مقاتلون كثيرون يجاهدون فى سبيل الله .

(7) يستحب للمسلم أن يفزع للصلاة إذا حزبه أمر .

(8) على المسلم ألا يعجل فى الأمور التى تحتاج إلى خيار ،

وعليه أن يستشير ، وأن يوازن ، وأن يدعو الله كى يوفقه إلى الاختيار السديد .[1]

(9) أهمية قراءة التاريخ .

(10) دور الأدب عموماً ، والقصة خصوصاً فى العملية التربوية ، وفى صياغة العقلية المسلمة .

• أهمية النظرة المنهجية ... والفقه الحضارى:

ولكننا نكمل هذه النظرة المباشرة القريبة بنظرة أخرى بعيدة شاملة ، ذات بُعد منهجى ، تبحث فى الدرس التربوى العظيم والمحور الواحد أو الوحدة الموضوعية .

وهى نظرة تستظل بفقه السنن الإلهية ، سواء الكونية التى تنظم عالم المادة أو الآفاق .

أو السنن الإلهية الاجتماعية وهى القوانين أو القواعد الربانية التى تنظم وتتحكم فى حركة الأنفس أو الأحياء عموماً والبشر خصوصاً .

وهى القواعد الثابتة العامة المطردة ، أى التى يمكن أن تتكرر دون محاباة ، طالما وجدت الظروف المكانية والزمانية والبشرية .

(1) (صحيح القصص النبوى : د . عمر الأشقر - دار النفائس - بيروت - الطبعة الأولى 1418 هـ - 1998 م - 173 بتصرف) .

لهذا فإن السنن الإلهية الاجتماعية ، تعتبر المرتكز لباب عظيم من الفقه ، وهو الفقه الاجتماعى الحضارى ، الذى يبحث فى عوامل السقوط والنهوض عند الأفراد والأمم والجماعات .

وبتدبرنا لهذه القصة ، نجد أن السنة الإلهية الاجتماعية البارزة خلالها ، تدور حول ظاهرة اجتماعية مرضية ، وحالة بشرية اعتلالية وخلل تربوى ، وهى (**ظاهرة الانغـلاق على الذات**) .

وهى ظاهرة تبين أن من أراد أو استهوى حالة معينة من الانغلاق والتحجر والجمود على أشياء معينة سواء كانت مادية أو معنوية ، فإن الجزاء الإلهى والمصير سيكون على هيئة انغلاق مضاعف .

وذلك على أساس فهمنا للقانون الإلهى الثابت ، أن الجزاء من جنس العمل .

وهو القانون ، الذى يتجلى حتى فى حكم الطاعة والسباق إلى الخيرات ، فمن يستهدى الله عز وجل يهديه " **فاستهدونى أهدكم** " .[1]

وعند دراسة هذه الظاهرة فإننا نجدها ذات صور ومناحى

---

(1) رواه مسلم .

منوعة كثيرة ، ونستشعر أنها حالة متجذرة فى السلوك البشرى ، ولكننا سنحاول التركيز على المجال الدعوى التربوى .

فمن تلك الجوانب :

• أولاً : الانغلاق عن الواقع :

وهى الحالة التى تبرز فيها صورة التكهف والانكفاء الداخلى والانعزال عن واقع المجتمع والحياة ، مع عدم الاهتمام بفقه الواقع .

إن من المسلمات الأولية للعملية التربوية ، والتى تهدف إلى إعادة صياغة للعقلية المسلمة ، إنها يجب أن تقوم على ركيزتين تربويتين متوازيتين ، ومتلازمتين :

الركيزة الأولى : داخلية لبناء الصف .

الركيزة الثانية : خارجية لدراسة الواقع المحيط للدعوة ، للتعامل معه .

وكذلك كان منهجه - ﷺ - التربوى المتوازن ، حيث اهتم بالبعد الداخلى للمسيرة الدعوية ، فكانت عينه على أصحابه وأتباعه يربيهم بتؤدة ، وفى نفس الوقت لم يغب الواقع عنه ، أو البعد الخارجى لمسيرته الرائدة المباركة ، كيف وأن هذا الواقع هو حقل الدعوة .

وتأمل كيف كان - ﷺ- ثاقب النظرة ، فى فقهه للبعد الخارجى للحركة الدعوية ، عندما أمر بالهجرتين الأولى للحبشة ، وقال عن حاكمها فيما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق : « **لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . وهى أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه** » .

وكذلك عندما ظل الرسول القائد - ﷺ - يترصد تحركات (خالد بن سفيان) الخطرة وتأليبه لقوى الشر فأرسل إليه عبد الله ابن أنيس رضي الله عنه بعد أن رسم له خطة قتله بدقة ، كل هذا وهو لم يغادر المدينة .

وأيضاً فى حديث عائشة - رضى الله عنها - الصحيح أنه - ﷺ - قال لها : "**لولا أن قومك حديثوا عهد بشرك ، لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم**" . أى أنه - ﷺ - ترك فعل ما يرى أنه مطلوب خشية أن يثير فتنة بهدم الكعبة وبنائها من جديد عند قوم حديثى الإسلام . أو بمعنى آخر كان يضع فى حساباته خطورة المحافظة على الشعور والرأى العام .

وكذلك كانت مهمة جميع الرسل - عليهم السلام - تجمع بين التوازن بين البعد الداخلى والخارجى ، بين الأصالة والمعاصرة .

فرغم أن ثوابت قضيتهم كانت واحدة ، وهى الدعوة إلى توحيد الله سبحانه ، فإن كل دعوة كانت لها متغيراتها الخاصة من منظور العصر الذى جاءت فيه ، ومن منطلق البعد المحيط والانحرافات المعاصرة للدعوة .

فمثلاً دعوة موسى - عليه السلام - وجهت إلى الطغيان المادى والاستبداد السياسى ، ودعوة شعيب - عليه السلام - وجهت إلى الانحراف الاقتصادى ، ودعوة لوط - عليه السلام - ركزت على الانحراف السلوكى والأخلاقى .

وهو الملمح التربوى ، الذى يعطى المربين مغزىً عميقاً ، وهو أن التربية لا تستقيم إلا بفقه شامل ، يهتم بالبناء الداخلى ولا يهمل الواقع الخارجى .

ولذلك فإن إهمال ذلك البعد الخارجى ، ومعرفة الظروف المحلية والدولية والعالمية التى تحيط بالدعوة لا يؤدى إلى إهمال إحدى ركيزتا التربية فقط ، بل قد يؤدى إلى خطر على الدين نفسه ، وتأمل الفقه العميق للفاروق رضوان الله عليه :(تنقضى عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية)

ولا عجب أن نرى البعض ممن جهل هذا الباب ، وقد تقوقع على نفسه ، وضيق عليها دوائر التربية ، فكانت النتيجة أن انشغل بقضايا قد ماتت . وأهمل قضايا عصره ، واختلت مراتب أولوياته .

وهو السفه والسذاجة وقصر النظر الذى قد يصيب البعض فلا يرى إلا مصلحته ، وتبرز عنده روح الأنانية والفردية ، على حساب الروح الجماعية ؛ ولن يشفع له إخلاصه من أن يؤخذ على يده ، حتى لا تغرق السفينة : "**مثل المدهن فى حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة ، فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها ، فكان الذين بأسفلها يمرون بالماء على الذين فى أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأساً ، فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا : مالك؟ قال :تأذيتم بى ، ولابد لى من الماء !. فإن أخذوا على يديه ، أنجوه ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم**" [1]

• ثانياً : الانغلاق الفكرى :

وهى حالة من الانكفاء على نوعية ثقافية أو فكرية محددة ، مع عدم الاطلاع على الثقافات الأخرى .

ولعل المثال الواضح لذلك ، هو حالة تلك الأمم التى

(1) البخارى 3 / 225 .

تعرضت لحالة من التقوقع على أطروحات فكرية جامدة ومحددة وهى الشعوب التى كانت ترزح لعقود طويلة ، تحت الحكم الشمولى (الدكتاتورى) ، الأحادى التوجه ، مثل الحكم الاشتراكى أو الشيوعى .

لأن المناخ الاجتماعى المغلق ، يفرز فكراً مغلقاً ويُنشئ سلوكاً متحجراً ، ويكوِّن عقلية منغلقة .

وتأمل المثال القرآنى الذى وضح تلك الحالة ، والذى ورد فى سياق قصة (ذى القرنين) ، أثناء الرحلة أو الجولة الثالثة ، وهى رحلته إلى الجهة الشمالية ؛ حين بلغ (بين السدين) .

لقد وجد نوعية من الأمم ، قوية مالياً ، ولكنها متخلفة ، وعاجزة حضارياً ، ومقهورة ، ومغلوبة عسكرياً ، ومبتزة اقتصادياً من غيرها .

وكانت تواجه خطراً مزدوجاً .

خارجياً : تواجه ذلك الخطر الدولى ، الممثل فى غارات يأجوج ، مأجوج .

وداخلياً : تعانى من أمراض مركبة ، تعود كلها إلى حالة الوهن والتردى والاستنقاع الحضارى ، ألا وهى مرض التخلف المعرفى ، والعجز العسكرى ، والابتزاز الاقتصادى ، والكسل

والاتكالية ، والغثائية ، رغم ما تتمتع به من قوة مالية؟!

ويمكن اعتبار تلك الأمة مثالاً ، لكل أمة تملك نفس الصفات ، والمقدرات ، وتمر بنفس الظروف الاجتماعية ، وتواجه نفس التحدى الدولى ، وتعانى من نفس الواقع العالمى فى كل عصر .

لقد كان أول ملاحظة وجدها (ذو القرنين) على هؤلاء القوم وهى أول عرض لحالة الاستنقاع الحضارى ، أنهم لا يكادون يفقهون قولاً .

وهو وصف مقبول على الوجهين ، سواء ما ورد فى قراءة الجمهور لكلمة يفقهون : (يَفقَهون) . أى لا يعرفوا لغة غيرهم ولا يفقهون قولهم .

أو فى قراءة حمزة والكسائى لكلمة يفقهون : (يُفقِهون) . أى لا يستطيعون إفهام غيرهم لغتهم وقولهم .

وهـذا مـا يدل على أنهـم قـوم متوغلون فى البداوة ، والبلاهة .

إن أول صفة من الصفات المرضية لهذه الأمة ، هى حالة الانغلاق الثقافى ، والتخلف المعرفى ، والتردى الفكرى .

وهـى الظـاهرة المعرفية المرضية ، التى تصيـب أى أمـة

ـ وكذلك أى فرد ـ كنتيجة لحالة مناخية اجتماعية يسودها الانغلاق المعرفى والتقوقع الفكرى ، والتحوصل الثقافى .

ورغم ذلك استطاع تراجمة (ذى القرنين)، أن يفهموا مقصدهم ، ويقيموا معهم حواراً مطولاً !؟ . وهو ما يبين مدى التقدم المعرفى والفكرى والثقافى لذى القرنين ، وكيف كان يسود مملكته حالة من الانفتاح المعرفى ، والحرية الفكرية ، والانتعاش الثقافى .

وهذا المظهر المرضى لتلك الأمة ، يمكن أن ينطبق على المستوى الفردى أو الجماعى المؤسسى . كما ينطبق على المستوى الاجتماعى .

وذلك حسب القاعدة الثابتة ، أن الضيق المناخى ، يورث الضيق الفكرى والسلوكى .

والقاعدة الثابتة الأخرى ، أن كبت الفكر ، يورث فكر الكبت !

• ثالثاً: الانغلاق الاجتماعى:

أى عدم الانفتاح الدعوى ، على المجتمع ، وإهمال التواصل والحوار مع الآخر .

إن السمات البشرية ، والخصائص الإنسانية ، بل ومن

الصفات الثابتة التى تميز الخلق وكل الأحياء ، فى السمة الاجتماعية ، أى حب التجمع ، والميل إلى نزعة التكتل .

والأحياء عموماً يتجمعون ، على صفات أو مصالح أو أهداف واحدة .

ولكن الإنسان يتميز عن الأحياء بأنه فوق تجمعه على الصفات والمصالح والأهداف الواحدة ، أنه يتجمع على الأساس الفكرى .

والتجمع الفكرى ، يكون على حالتين :

الأولى : أن يكون هناك عدم توازن فى عملية التلاقح الثقافى والتبادل المعرفى بين هؤلاء المجتمعين .

أى أن تيار الثقافة يكون أحادى التوجه ، فيسير من ثقافة الغالب إلى المغلوب .

فالغالب يجنح إلى السيطرة ، والمغلوب يجنح إلى التقليد ، وذلك لطبيعة نفسية داخلية انهزامية .

كما يقول ابن خلدون - رحمه الله - فى مقدمته : (فى أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أحواله ، وعوائده) .

وهى حضارة الاعوجاج ، حضارة الاحتواء والهيمنة ، حضارة المستفيد والخاسر .

الثانية : أن يكون هناك توازن فى حركة التبادل الفكرى بين المجتمعين والمتكتلين .

وتكون حركة أو تيار الثقافة ، يسير فى كلا الاتجاهين .

أى أن كل المشاركين يتبادلون الأفكار ، فيأخذون بعض الجوانب الفكرية والمعرفية والثقافية من الآخر ، وفى نفس الوقت يعطون ويقدمون ما عندهم من بضاعات فكرية وثقافية ومعرفية .

وهى حضارة الأسوياء ، حضارة المستفيدين .

لهذا فإننا نقرر ونجزم أن من لا يتجمع مع الغير ، ومن لا ينفتح مع الآخر ، فإنما هو فى حالة من النشاز والمصادمة للفطرة الإنسانية ، بل وضد طبيعة كل الأحياء .

وتأمل هذا المثال القرآنى الراقى ، والذى يبين كيف تكون العلاقة حتى فى حالة الاختلاف الفكرى .

وهو المثال الذى قصه علينا القرآن الكريم - فى سورة الكهف - حول العلاقة بين التيارين اللادينى العلمانى المادى والدينى ، الممثلين بالرجلين الكافر والمؤمن ، فى قصة صاحب

الجنتين ، وكيف كانت العلاقة السابقة بينهما ، قد جسدت الأرضية التى نشأت عليها صحبتهما .

وتأمل مغزى تلك العبارة : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ ﴾ ، وذلك بعد أن ندرك أن معنى الصاحب هو (الملازم إنساناً كان أو حيواناً . أو مكاناً أو زماناً . ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن وهو الأصل والأكثر ، أو بالعناية والهمة . ولا يقال فى العرف إلا لمن كثرت ملازمته) .[1]

إذن فهناك بين الرجلين ـ وعلى الرغم من خلافهما الفكرى علاقة مصاحبة وملازمة ، وهى التى ساعدت على عملية الحوار وحرية الرأى .

ولكن الرجل الكافر كان له وضعه الغريب الشاذ ، لقد آثر حالة الانغلاق على موروثاته ، واستهوى ثقافته الذاتية ، ورفض التجاوب مع مبادرة الانفتاح على فكر الآخر ، وأبى المشاركة فى حركة التبادل المعرفى .

والغريب أنه ـ وكما تذكر القصة ـ هو الذى بادر بالحوار مع الرجل المؤمن .

---

(1) (مفردات ألفاظ القرآن : الراغب الأصفهانى 475) .

ويصور السياق حالته أثناء الحوار ، أنه (دخل جنته) ، هكذا فى التعبير القرآنى .

إن جنته هى حدوده وهى غاياته فعقليته عجزت عن كسر السياج الذى رضيت بأن يقام حولها ، واهتماماته انحصرت داخل ذلك الحيز الضيق ، ذلك الضيق المركب ، ضيق الدنيا والماديات التى تعمى صاحبها ، فلا يرى إلا ملكه . وضيق الفكر فلا يسمع إلا نفسه ، ولا يرى إلا رأيه ، بنهج فرعونى استبدادى إرغامى (ديكتاتورى) ! ، وذلك لأن الاهتمامات المادية بطول المعايشة تؤدى إلى حركة ضمور فكرى وعملية استلاب مهينة لدور وحرية العقل ، فى أن يرى الحقيقة مجردة بسيطة!

إن الماديين عندما يقصرون اهتماماتهم على الأشياء والماديات والأشخاص ، يصابون بنوع من الضمور الفكرى ، وضيق الأفق وضيق الرؤية ، فلا يرون إلا ذواتهم وممتلكاتهم ومادياتهم وأشياءهم ، ولا يسمحون لعقولهم بالخروج من جنتهم التى يبنونها بأيديهم .

والخطورة أن يتعرض البعض من الدعاة لهذه السنة الإلهية الاجتماعية .

فعندما يقصرون عقولهم على أشياء مادية أو موروثات

ثقافية معينة ، وعلى أشخاص بعينهم فلا يسمعون إلا لهم ، ولا يسمحون لعقولهم بغربلة المعطيات ، التى تلقى إلى عقلياتهم ، ولايتلقونها بالنظرة النقدية ، يصابون أيضاً بظاهرة الانغلاق على الذات ، ذات المناحى والمنهجية الخطية ، فيعيشون داخل جنتهم التى يقيمونها بذواتهم ، فيظلمون دعوتهم ويظلمون أنفسهم ، وذلك لأنهم تعرضوا لسنة إلهية اجتماعية لا تتبدل ولا تحابى!

وتصوروا أنهم يعيشون فى حارة اليهود !!!؟

فوقعوا كذلك تحت القواعد الثابتة ، أو السنن الإلهية الاجتماعية . إن الضيق المناخى يورث الضيق الفكرى والسلوكى .

وكبت الفكر ، يورث فكر الكبت!

والجزاء من جنس العمل !!!!!؟

● رابعاً : الانغلاق على الأبائية :

أى أن الفرد أو المؤسسة أو الأمة تكون رهينة لحالة من التحجر العقلى ، والعيش فى ثقافة ماضوية ، مع التوجس الدائم من كل جديد ، وعدم الرغبة فى الإبداع ، والخوف من التطوير والهلع من الابتكار .

وهذا الانغلاق الآبائى يتجلى فى كلا المجالين الفكرى أو المادى .

وتأمل كيف نبذ القرآن الكريم ، هؤلاء الآبائيين ، وتجمدهم على موروث واحد فقط ، وهو التراث الأجدادى والآبائى :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (1)

إن من المسلَّم به أن أى مشروع حضارى ، يقوم على فكرة ، لها ثوابت ومتغيرات .

أما الثوابت فهى الأصول التى لا يمكن التفريط فيها ، لأن ذلك معناه تعريض الثقافة الذاتية للانهيار ، وتهديد الفكرة بالهدم من الداخل .

وأما المتغيرات أو الفروع ، فهى تعطى حاملى هذه الثقافة المرونة فى التعامل مع متغيرات الواقع ، ومع معطيات كل مرحلة جديدة تمر بها حركة تلك الفكرة .

(1) الزخرف (21 ـ 25) .

وحاملوا الفكرة ، وأصحاب كل ثقافة يجب عليهم أن يحاولوا الحركة بشئ من التوازن بين المحافظة على الثوابت ومحاولة التطور مع وسائل ومتغيرات وأحوال كل عصر ومرحلة .

وبمعنى آخر هو وجوب التوازن بين الأصالة والمعاصرة .

فإذا كانت سنة التداول ؛ من السنن الإلهية الثابتة ، أو القوانين الربانية العامة ، التى تنظم وتتحكم فى حركة الوجود .

كما يقرر سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1] .

فإن التغير والتجديد ، فى كل مجالات هذا الوجود ، هو توضيح للمعنى البسيط لتلك السنة الإلهية .

ورسولنا - ﷺ - يقرر هذه الحقيقة ، فى مجال المنهج الخالد ، حيث يبين استمرارية حركة الإبداع فى فهم الرسالة ، وديمومة عملية التجديد فى عرضها :

" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها "[2]

---

(1) آل عمران : (140) .

(2) رواه أبو داود فى الملاحم .

وتدبر المثال القرآنى الراقى حول تلك القضية ؛ والتى نعنى بها ضرورة التجديد فى الوسائل .

وذلك كما جاء فى قصة (أصحاب الكهف) ، عندما قاموا من رقدتهم الطويلة وأرسلوا صاحبهم ليحضر لهم الطعام لأنهم جوعى ، بعد أن أوصوه بالبحث عن الطعام الطيب الحلال ، وأمروه بالتلطف والحذر .

ولكن الذى حدث ، هو أن صاحبهم هذا ، كان يدور فى خلده أنه ما غاب عن المدينة إلا يوماً واحداً ، ولم يلاحظ ذلك التغيير الذى طرأ على الزمان ، والمكان بل وأحوال البشر ، ومن ثم فقد عمد بنقوده الفضية إلى رجل ممن يبيعون الطعام ، فقلب الرجل النقود واستغربها ، وظن أن صاحبه هذا قد عثر على كنز قديم يرجع تاريخه إلى مئات السنين ، ونشر هذا الخبر بين جيرانه حتى وصل الخبر إلى الملك ، وانكشف سر هؤلاء الفتية !

وهو الملمح القرآنى الطيب ، الذى يبرز لنا أهمية فقه الواقع ومعرفة واقع الحركة الخارجى ، أو البعد الخارجى للدعوة .

ويبين لنا أهمية اتجاهات الواقع بأسلحته الحديثة ، لا بأساليب بالية ، قد يتهم من يحملها ـ وهو المخطئ ـ بالرجعية والتخلف ، والظلامية ، وأنه آتٍ من الكهوف .

ويدعونا إلى الاهتمام بمعاصرة خطاب الدعوة الإعلامى .

كل هذا من خلال المحافظة على ثوابت المنهج ، والموازنة والترجيح بين متغيراته .

والتوازن بين أصالة الفكر ومعاصرة عرضها ، وهو توازن الجمع بين الثبات على الأصول والأهداف ، والمرونة فى الأساليب والوسائل .

• خامساً : الانغلاق على الجزئيات :

وهى أن يقتنع الفرد أو المؤسسة ببعض الجزئيات على حساب الكليات .

والنتيجة أن تنحصر الفكرة فى تصورات جزئية .

وأن يختزل المنهج إلى طقوس ركنية .

وتعود أسباب تلك الصورة أو الحالة إلى سببين رئيسيين :

السبب الأول : هو القصور فى الفهم .

السبب الثانى : الخوف من المواجهة ، وإيثار مبدأ السلامة ، والهروب من تحمل تبعات حمل المنهج بشموله وتكامله .

ولو تـدبرت القـصة التى وردت عنه - ﷺ - وهى تحكى

عن (جريج) ، عابد بنى إسرائيل[1] ، وهو الذى تقوقع على عبادته فى صومعته فى أحد الجبال البعيدة وانعزل عن الناس ، مما أصابه بخلل فى التصور حول الأولويات ، حيث فضل صلاته على نداء أمه ، فاستمر فى صلاته ولم يرد عليها ، مرة بعد مرة ، حتى دعت عليه ، أن لا يموت حتى يرى وجه المومسات .

ورغم انعزاله عن الناس ، فلم يُنْجه ذلك التصومع من المحنة العظيمة ، حيث اتهمته إحدى المومسات بالفاحشة .

لقد آثر السهل وتمسك بالجانب الذى تهواه كل نفس ، وهو إصلاح النفس ، أى العبادة والمعيشة الفردية المنعزلة ، وترك جوانب أخرى أهم ، وأخطرها روح المعايشة الاجتماعية ، أى الاختلاط بالناس ، والدعوة للفكرة وهداية الناس .

فالحركة والمواجهة مع المجتمع ولو فكرياً ، ولو تعاملاً حياتياً تؤدى إلى زيادة رصيد الفقه .

وكذلك فإن الانفتاح على الناس ، بتوازن وبتعقل ، يقوم على فقه الواقع ، لا يجر إلى مكروه .

---

(1) متفق عليه .

• سادساً : الانغلاق الفوقى :

وهى صورة من بروز الذات ، التى تؤدى إلى النظرة الفوقية التى تؤدى بدورها إلى العمى عن تقدير إمكانات الآخر ، وبالتالى تقف حائلاً دون التعاون ، والاستفادة والاستزادة المتبادلة .

عندما تمنع حركة التبادل المعرفى والثقافى والفكرى مع الآخر .

وبروز روح العلو والفوقية ، قد تبدو فى مجالات كثيرة ، أبرزها :

(أ) الفوقية الاجتماعية ، وهى تعتبر أهم تلك المجالات ، وهى بروز روح التعصب والطائفية والشعوبية .

وتدبر موقف الملأ من بنى إسرائيل ، عندما أصيبوا بداء العلو العرقى ، والنظرة الفوقية ، مما أدى إلى إصابتهم بالمحدودية الفكرية ، فاعترضوا على القائد الربانى (طالوت) والمختار من قبله سبحانه ، و ﴿ **قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1]

---

(1) البقرة : 247 .

لقـد نظـروا إلـى القـائد المعين على أسـاس أنه ليس من أبناء (لاوى) فرع النبوة وشجرة الرسالة فيهم ، وليـس مـن غصـن (يهوذا) معدن الملك وأصحاب الرياسة فيهم ، كما أنه رجل فقير ليس له ثروة تعينه على ذلك السلطان ، فلقد كان دباغاً أو راعياً . ولكنهم نسوا قول نبيهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ ﴾ ، فهو إذن اختيار ربانى ، ولذلك فقد كرر نبيهم تلك الميزة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وعدَّد عليهم صفاته القيادية الأخرى التى يحتاجها القائد العسكرى وهى القدرة الجسمية والإرادية ، فلقد كـان أعلم بنى إسرائيل وأجملهم وأتمهم خلقاً ، وأشد قوة وصبراً ، والله لا يسأل عما يفعل ويختار ، وهو سبحانه واسع العطاء والفضل وعليم بمن هو أحق بالملك .

وهى سمة من سمات بنى إسرائيل ، وهى (سمة بروز الذات) والتى من مظاهرها الشعور بالعلو العرقى والعصبية الطائفية ، ومن نتائجها بروز روح التمرد داخل الصف ، مما يدفع إلى حب الاعتراض ، ولو على القيادة .

وتدبر ما حدث أثناء (غزوة حنين) ، وكيف أن مجرد السرور والإعجاب بالقوة الذاتية ، والتى تمثلت فى مقولة الصديق - رضي الله عنه - : (لن نغلب اليوم من قلة) .

فكانت الهزيمـة المنكرة لتلك الكثـرة ، فى جولة المعركة الأولى .

وكان الانتصار العظيم فى الجولة الثانية ، عندما ثبت الرسول الكريم - ﷺ - وفى قلة من أصحابه الخُلَّص رضوان الله عليهم .

وكان الدرس الربانى العظيم الخالد ، أن نهتم بالنوعية والكيف ، ولا نغتر بالكم والكثرة .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (1)

وتأمل قصة ذلك النبى الكريم ، الذى عاقبه الله عز وجل بموت سبعين ألفاً من جيشه .

والملمح التربوى الذى يجمع هذه الأمثلة ، هو خطر انتشار روح العلو الطائفى ، والفوقية الاجتماعية .

وهى روح قد تبرز فى سلوك بعض الدعاة ، فيصاب بروح الفوقية لصفاته الشخصية وقدراته ، أو الروح العصبية لمؤسسة معينة ، أو لمناصرة فئة بعينها ، فلا يرى الحق إلا فيها ، ولا يرى الخير إلا منها .

---

(1) التوبة : (25) .

بل ولا يطلب النصر إلا لها فقط ، ويعادى أى خير يأتى من غيرها !!؟؟ .

فيتحول من حامل للفكرة ، بمعناها الرحب ، إلى حامل بل أسير للعصبية الطائفية !!؟؟

(ب) الفوقية الفكرية ، وهى أخطر تلك المجالات ، عندما تبرز الروح الفوقية الثقافية ، والعلو المعرفى .

ويكون نتيجة ذلك إعاقة حركة التبادل الفكرى والتلاقح المعرفى ، والتعاون الثقافى .

وتدبر ما حدث مع موسى - عليه السلام - فى قصته مع (الخضر) .

وسببها كما بينه - ﷺ - "**بينما موسى فى ملأ من بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال له : هل تعلم أحداً أعلم منك ؟** .

قال : لا .

فأوحى الله إلى موسى : « بل عبدنا الخضر » .[1]

وكانت الرحلة التعليمية التربوية الطويلة لموسى - عليه السلام -

---

(1) رواه البخارى ومسلم .

مع فتاه (يوشع بن نون) ، ولقائه مع الخضر والتى أثبتت أن هناك من هو أعلم من موسى - عليه السلام - .

والملمح التربوى البعيد لهذه القصة ، أن خطر التعصب المعرفى والنظرة الفوقية للرأى ، قد يؤدى إلى عدم التعاون الثقافى والعمى عن ثقافة وأفكار الآخر ، والتى من الممكن أن تكون أعلى وأنضج .

والتعصب المعرفى والفوقية الثقافية قد تراها فى سلوك بعض الدعاة فيتعامل بفوقية لرأيه ، أو لاقتراحاته ، دون النظر إلى أطروحات الآخر .

أو أن يتعصب لفكر معين ، ولثقافة محددة ، فيصاب بحالة من ضيق الأفق الفكرى ، وقصر النظر الثقافى .

وبعد . .

فلعلنا نكون قد غطينا بعض صور وجوانب ، ظاهرة الانغلاق إلى الذات ، والتحذير من آثارها .

وهى دعوة للانفتاح فى كل المجالات ، خاصة التى ذكرناها .

مع أخذ الحيطة بالتحصين الداخلى أولاً وبالتسليح الذاتى ، فكل شئ له جوانب غثة وجوانب ثمينة ، والعدل والوسطية

والذكاء أن نرحب بالثمين من الأشياء والماديات والأشخاص والأفكار بل والعادات ، وننبذ الغث منها :

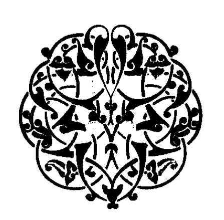
وذلك فى عصر العولمة والكونية ، والتى لا تواجه إلا بسلاحين رئيسيين :

(أ) التحصين الداخلى

(ب) ثم الانفتاح الخارجى .

أما من يستهويه الجمود والتحجر والانغلاق ، فقد تعرض لسنة إلهية اجتماعية ثابتة ومطردة أى متكررة دون محاباة ، والخطر لمن يتعرض لها .

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ .[1]



---

(1) النساء : (123) .

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس



تابع الفهرس

تابع الفهرس

مطابع الصقر
ت: ٠١٥/٤١٢٥٥٥ - ٠١٥/٤١٢٧٧٧